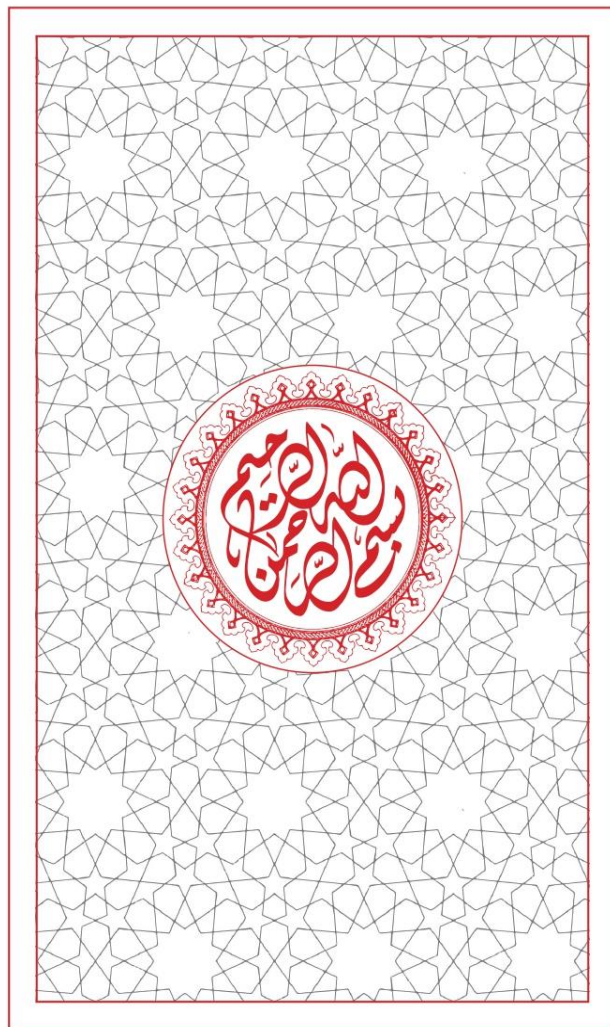


الْجُمَانُ

فِي تَدَبُّرٍ وَتَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

لأُمِّ تَمِيمٍ
د/ عَزَّةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ

تفسير سورة الفاتحة



من مصنفات المؤلف

- الفقه الميسر (سنة مجلدات) فقه مقارن - مكتبة مكة - القاهرة - طنطا (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- الفروق الفقهية في الزكاة وتطبيقاتها المعاصرة - رسالة دكتوراة - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢).
- أمراض القلوب - خمسة وثلاثون مرضاً من أمراض القلوب وطرق علاجها - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- التعليقات الجلية على العقيدة السفارينية - للإمام السفاريني (مجلدان) - دار الآثار - القاهرة (ت: ٠٢٢٥١٢٥١٨٤).
- الفتوحات الربانية في تفسير أسماء الله الحسنى (مجلدان) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢).
- عقائد الفرق الضالة وعقيدة الفرق الناجية - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢).
- الدرر البهية - بيان التوحيد الصحيح من الكتاب والسنة - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- المحجة البيضاء - في بيان أهمية التمسك بالسنة وبيان البدع وأنواعها - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).
- محمد رسول الله ﷺ كأنك تراه - مكتبة مكة - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٤٨٩٨٥٣).

- بيان قدر الصحابة عند الله العظيم وضلال الشيعة الخاسرين -
مكتبة آل ياسر - القاهرة (ت: ٠١١١٢٤٥٨٤٤٤).
- المجموعات العلمية للمبتدئين:
- مجموعة بداية الهداية - لمعرفة دينك بأسلوب سهل ميسر (أصول الإيمان - تفسير القرآن - حديث - فقه العبادات) - دار ابن رجب القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢).
- مجموعة النور الساطع للجيل الصاعد من عمر ١٢ عام (تفسير القرآن - مجمل الاعتقاد - حديث - فقه) - دار ابن رجب - القاهرة (ت: ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢).

الموقع الرسمي لأم تميم

www.omtameem.com

الصفحة الرسمية لأم تميم على فيسبوك

<https://www.facebook.com/Om.Tameem.Dr.Azza.Mohamed>

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

* أما بعد: فلا يخفى أن القرآن كلام رب العالمين، أنزله على نبينا محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، فقد سمعه جبريل من الله عز وجل وسمعه رسول الله ﷺ من جبريل الأمين.

* فأعظم ما تنقضي فيه الأوقات، وتنفي فيه الأعمار، وتنشغل به العقول: كتاب الله، فالسعيد من صرّف همه لتدبره وتذكره، وحفظه والتذكير به، ذلك الكتاب الذي بهرت بلاغته البلغاء، وأبكت فصاحته فحول الشعراء، فهو الآية الباقية، والحجة البالغة.

* حَفِظَهُ اللهُ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ وَالتَّغْيِيرِ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

* فبالقرآن تحيا القلوب، وتستنير العقول، وتنشر الصدور، فلا سعادة ولا طمأنينة، ولا راحة ولا سكينه، إلا بالتمسك بكتاب الله العزيز، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء].

* ومن رحمة الله بعباده أن أنزل لهم القرآن ليخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والعصيان إلى نور العلم والإيمان، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم].

* ومن رحمته بعباده أن يسر لهم تلاوته وحفظه، قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾ [القمر].

* أما عن كنوزه، فقد عجز جهاذة العلماء عن استقصاء كنوزه واعجازه، فهو بحر لا يدرك غوره، ولا تستقصى عجائبه، ولما لا وهو كلام الله، الذي لما سمعه الجن، وفهموا معانيه، وعقلته قلوبهم قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الجن].

* من أجل ذلك أردت أن أضرب بسهم في هذا الباب العظيم باب تدبر وتفسير كتاب الله تعالى.

* فعزمتُ بحول الله وقوته على تفسير القرآن تفسيرًا وجيزًا سهلًا ميسرًا يناسب حال المسلمين في هذا الزمان، فلا يخفى أن أصحاب التفاسير كانوا علماء جهابذة في شتى الفنون، وعلى رأسها اللغة والإعراب والبلاغة، مما جعل دراسة هذه الكتب تَصْعُبُ على كثيرٍ من المسلمين.

* فمن أجلِ المننِ وأعظمِ النعمِ أن يُيسِّرَ الله لي هذا التفسيرَ الوجيزَ، مع الاعتراف بقصوري وتقصيري وتطفلي بهذا العمل على موائد العلماء الأكابر الذين فتح الله لهم ما لم يفتحه لغيرهم، وما أنا إلا طَوِيلِبَةٌ علمٍ ترجو رحمةَ ربِّها وتُخافُ عذابه.

وقد سميته بـ: (الجُمان في تدبُّر وتفسير القرآن).

* أسأل الله العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعلَ له القبولَ ويجعله ذخراً لي عنده يوم القيامة، إنه كريمٌ جوادٌ، واسعُ العطاء، عظيمُ المنِّ والإحسان، سبحانه وتعالى وعَزَّ وَجَلَّ.

أم تميم

عزة بنت محمد رشاد بن حسن

تمهيد

ويشتمل على التعريف بمنهج الكتاب والأصول المعتمدة في التفسير عند علماء أهل السنة والجماعة - جمل من فضائل القرآن - جمل من آداب حامل القرآن - أسباب اختلاف العلماء في التفسير - نزول القرآن على سبعة أحرف - مسائل في الاستعاذة - معنى السورة - معنى الآية - حكم البسملة.

منهج الكتاب:

ابتداءً يعلم القارئ أن منهجي في التفسير هو ما قعده وأصله علماء السلف الصالح، منهم شيخ الإسلام ابن تيمية^(١).

فقد ذكر في الكتاب أصول أهل السنة والجماعة - من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان - في تفسير القرآن، وها هنا أذكر منهج الكتاب، والطريق الذي سلكته في التفسير.

النقل من كتب العلماء الربانيين الذين سلكوا أحسن طرق التفسير، وها هنا أبين هذه الطرق.

أولاً: تفسير القرآن بالقرآن:

قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن أصح الطرق في ذلك: أن يُفسَّر القرآن بالقرآن؛ فما أُجِمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختُصر من

(١) انظر: مقدمة أصول التفسير لابن تيمية، ومجموع الفتاوى له (١٣ / ٣٢٩ - ٤٢٣).

مكان، فقد بُسِطَ في موضع آخر^(١).

ثانيًا: تفسير القرآن بالسنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ:

فان لم تكن الآية لها تفسير من القرآن «فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له؛ بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَدْنَا اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ۝١٥﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَفَوْا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤﴾ [النحل]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»^(٢) يعني السنة.

والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن؛ لا أنها تتلى كما يتلى وقد استدل الإمام الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك، والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة^(٣).

(١) انظر: شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٧٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، وأحمد (٤ / ١٣٢، ١٣١)، من حديث المقدم بن معد

يكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣ / ٣٦٣ - ٣٦٤)، ومقدمة تفسير القرآن العظيم

لابن كثير (١ / ٣٢) وما بعدها، وتفسير القرطبي (١ / ٥٣ - ٥٦).

ثالثاً: تفسير بأقوال الصحابة رضي الله عنهم:

قال: «إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح؛ لاسيما علماؤهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين: مثل عبد الله بن مسعود، قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: حدثنا أبو كريب قال أنبأنا جابر بن نوح أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: قال عبد الله يعني ابن مسعود: «وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا نَزَلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ نَزَلَتْ وَأَيْنَ نَزَلَتْ وَلَوْ أَعْلَمُ مَكَانَ أَحَدٍ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنِّي تَنَاولَهُ الْمُطَايَا لِأَنِّيته»^(١) وقال الأعمش أيضا عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: «كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ»^(٢). ومنهم الخبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ببركة دعاء

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣)، ولفظ البخاري: «وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الْإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ».

(٢) إسناده صحيح: أخرجه الطبري في التفسير (١/ ٧٤)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تفسير الطبري، وقال: وهو موقوف على ابن مسعود، ولكنه مرفوع معنى، لأن ابن مسعود إنما تعلم القرآن من رسول الله ﷺ، فهو يحكي ما كان في ذلك العهد النبوي المنير.

رسول الله ﷺ له حيث قال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمَهُ التَّوِيلَ»^{(١)(٢)}.

رابعاً: تفسير بأقوال التابعين رحمهم الله:

«إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه كان آية في التفسير، كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ثلاثَ عرضاتٍ من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها»^(٣).

«وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك بل مبتدعاً وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه»^(٤).

«وهكذا روى بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شدّدوا في أن يفسر القرآن بغير علم وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن وفسروه بغير علم أو من قبل أنفسهم، وقد روي عنهم ما يدل على

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٩٧)، وابن أبي شيبة (٣٢٢٢٣)، والبخاري (٥٠٧٥)، وابن

حبان (٧٠٥٥)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان

(٧٠٥٥)، وقال الشيخ شعيب الأرناؤط: إسناده قوي على شرط مسلم.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ٣٦٤ - ٣٦٥).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٣٦٨ - ٣٦٩).

(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٦١).

ما قلنا أنهم لم يقولوا من قبل أنفسهم بغير علم، فمن قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ؛ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر؛ لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ، والله أعلم.

وهكذا سمي الله تعالى القذفة كاذبين فقال: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ [النور]، فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحلُّ له الإخبار به وتكلف ما لا علم له به، والله أعلم^(١).

خامساً: ترك التفسير بمجرد الرأي والهوى:

فاما التفسير بمجرد الرأي فحرام^(٢).

عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَيُّ أَرْضٍ تُقْلَنِي، وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ^(٣).

وليس معنى التفسير بالرأي أن تفسر القرآن حسب ما تقتضيه اللغة العربية، التفسير بالرأي أن تحمل معنى الآية على رأيك، وهذا إنما يكون في

(١) مجموع الفتاوى (١٣ / ٣٧١).

(٢) انظر: مقدمة تفسير ابن كثير (١ / ٣٧) ط. ابن رجب، ومقدمة تفسير القرطبي (١ /

٤٧)، وجامع البيان (١ / ٧١).

(٣) صحيح: أخرجه الطبري (٧٩).

المتعصبين لمذاهبهم، الذين يحاولون أن يلويوا أعناق النصوص إلى ما كانوا عليه^(١).

قال القرطبي رحمه الله - بعد أن ذكر حديث: من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار^(٢) -: فحمل بعض أهل العلم هذا الحديث على أن الرأي معني به الهوى، من قال في القرآن قولاً يوافق هواه، لم يأخذه عن أئمة السلف فأصاب فقد أخطأ، لحكمه على القرآن بما لا يعرف أصله، ولا يقف على مذهب أهل الأثر والنقل فيه. وقال ابن عطية: ومعنى هذا أن يسأل الرجل عن معنى في كتاب الله عز وجل فيتصور عليه برأيه دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلم كالنحو والأصول، وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته والنحويون نحوه والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علم ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلًا بمجرد رأيه.

قلت: هذا صحيحٌ وهو الذي اختاره غيرُ واحدٍ من العلماء، فإن من قال فيه بما سنع في وهمه وخطر على باله من غير استدلال عليه بالأصول فهو مخطئ، وإن من استنبط معناه بحمله على الأصول المحكمة المتفق على

(١) تفسير سورة غافر للعثيمين (ص: ٣٣).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٥١، ٢٩٥٠)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣٠)، وأحمد (٢٠٦٩).

وضعه أحمد شاكر، والألباني، وشعيب الأرناؤط لضعف عبد الأعلى بن عامر الثعلبي.

انظر: مسند أحمد (٢/ ٦١) ت: أحمد شاكر، وضعيف الترمذي (٢٩٥٠)، ومسند

أحمد ط الرسالة (٣/ ٤٩٦).

معناها فهو ممدوح. وقال بعض العلماء: إن التفسير موقوف على السماع، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وهذا فاسدٌ لأن النهي عن تفسير القرآن لا يخلو: إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط، أو المراد به أمراً آخر، وباطل أن يكون المراد به ألا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمعه، فإن الصحابة رضي الله عنهم قد قرءوا القرآن واختلفوا في تفسيره على وجوه، وليس كل ما قالوه سمعوه من النبي ﷺ، فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل فما فائدة تخصيصه بذلك! وهذا بيّن لا إشكال فيه، وسيأتي لهذا مزيد بيان في سورة النساء إن شاء الله تعالى، وإنما النهي يحمل على أحد وجهين: أحدهما أن يكون له في الشيء رأي، وإليه ميلٌ من طبعه وهواه، فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه، ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا النوع يكون تارةً مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته، وهو يعلم أن ليس المراد بالآية ذلك، ولكن مقصوده أن يُلبس على خصمه، وتارةً يكون مع الجهل، وذلك إذا كانت الآية محتملةً فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه، ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسر برأيه أي رأيه حملاً على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه. وتارةً يكون له غرضٌ صحيحٌ فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدلُّ عليه بما يعلم أنه ما أريد به، كمن يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه]، ويشير إلى قلبه، ويومئ إلى أنه المراد

بفرعون، هذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسیناً للكلام وترغیباً للمستمع، وهو ممنوعٌ لأنه قياسٌ في اللغة، وذلك غيرٌ جائزٍ، وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغيير الناس ودعوتهم إلى مذاهبهم الباطلة، فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غيرٌ مرادة. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسّر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لا بد له منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط. والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة، ولا يدري بماذا ظلموا، وأنهم ظلموا غيرهم وأنفسهم، فهذا من الحذف والإضمار، وأمثال هذا في القرآن كثير، وما عدا هذين الوجهين فلا يتطرق النهي إليه، والله أعلم^(١).

(١) الجامع لأحكام القرآن - المقدمة - (١ / ٤٨ - ٥٠).

سادسًا: نقل أقوال العلماء التي توافق الكتاب والسنة وفهم الأئمة من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان:

بناءً على القواعد السابقة يكون اختياري من أقوال العلماء وعزو الكلام لقائله، وفي بعض المواضع أدمج أقوال العلماء بتصرف، فأذكر ذلك في الحاشية.

مع العلم بالظاهر والمؤول، والمحكم والمتشابه، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمجمل والمبين، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والفقهاء المقارن، وغير ذلك من أدوات تعيين المفسر على حصول مطلوبه من غير أن يخرج عن منهج السلف في التفسير.

سابعًا: إذا كان التفسير به أقوال تخالف منهج السلف وأقوال آخر توافق المنهج أخذت منه الصواب الموافق لمنهج النبوة:

أعني ما أخبرنا به رسول الله ﷺ والصحابة من بعده، كما أسلفت آنفًا، فكلُّ يؤخذ من قوله ويردُّ إلا رسول الله ﷺ كما قال الإمام مالك رحمه الله.

فقد تكون بعض كتب التفسير بها علمٌ غزيرٌ، فلا يُترك لمجرد أن صاحبه عنده بعض الأخطاء في باب الاعتقاد، بل يُترك الخطأ، ويُؤخذ الصواب، وهذا يحتاج إلى توفيق الله أولاً ثم سلامة الاعتقاد حتى يتسنى للمفسر التمييز بين الغثِّ والسمين، والله المستعان.

قال الإمام الذهبي رحمه الله: إن الكبير من أئمة العلم إذا كثُر صوابه، وعُلِمَ تحريره للحق، واتَّسع علمه، وظهرَ ذكاؤه، وعُرِفَ صلاحه وورعه

واتباعه، يُعْفِرْ لَهُ زَلَّهُ، وَلَا نُضَلُّهُ وَنَظَرُحُهُ وَنَنْسَى مُحَاسَنَهُ، نَعَمْ، وَلَا نَقْتَدِي بِهِ فِي بَدْعَتِهِ وَخَطْئِهِ، وَنَرْجُو لَهُ التَّوْبَةَ مِنْ ذَلِكَ^(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما الواحدي فإنه تلميذ الثعلبي وهو أخبر منه بالعربية؛ لكن الثعلبي فيه سلامةٌ من البدع وإن ذكرها تقليدًا لغيره، وتفسيره وتفسير الواحدي البسيط والوسيط والوجيز، فيها فوائدٌ جليلةٌ وفيها غثٌ كثيرٌ من المنقولات الباطلة وغيرها^(٢).

وقال أيضًا: وتفسير القرطبي خير منه^(٣) بكثير وأقرب إلى طريقة أهل الكتاب والسنة وأبعد عن البدع، وإن كان كل من كتب هذه الكتب لا بد أن تشتمل على ما ينقد، لكن يجب العدل بينهما وإعطاء كل ذي حق حقه.

وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري وأصح نقلًا وبحثًا وأبعد عن البدع، وإن اشتمل على بعضها، بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير، لكن تفسير ابن جرير أصح من هذه كلها^(٤).

وقال: أبو عبد الله القرطبي وهو من أكابر علماء الأشعرية^(٥).

تأمل كلام شيخ الإسلام، ذكر محاسن وفوائد هذه التفاسير، وذكر أن

(١) سير أعلام النبلاء (٩ / ٣٢٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٣ / ٣٨٦).

(٣) أي: تفسير الزمخشري - انظر: مجموع الفتاوى (١٣ / ٣٨٦).

(٤) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥ / ٨٥).

(٥) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦ / ٦٠٨).

فيها باطلاً، ولم يمنع من الانتفاع بما فيها من الحق والفوائد الجليلة، ولكنه حذر من الباطل، وهذا هو العدل والإنصاف.

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: إذا قال قائل: إلى أي شيء نرجع في التفسير، كتب التفسير كثيرة وتناولها للقرآن على وجوه متنوعة فإلى أيها نرجع؟

نقول: أهم شيء نلاحظ في هذا ما يتعلق بالعقيدة، وعلى هذا فنحذر من كل من ينحى منحى أهل التعطيل في صفات الله عز وجل وأسمائه، فإذا عُرِفَ أن هذا التفسير من هؤلاء القوم فلنحذره، حتى وإن كان فيه فوائد من الناحية اللغوية أو الفقهية، لكن يجب أن نحذره في مقام أيش؟ العقيدة؛ لئلا نزلَّ.

ولنضرب لهذا مثلاً، الكشف للزمخشري: لا شك أنه تفسير جيد في تحرير المعنى، وفيما يرمي إلى البلاغة، وأن كلَّ من جاء بعده ممن ينهجون هذا المنهج، كلهم عيالٌ عليه، حتى إنك لترى العبارة: عبارة الزمخشري بنصّها وفصّها في هذه التفاسير، لكنه في مسألة العقيدة سيءٌ يجب الحذر منه، حتى قال بعضهم: إنه لا يطلع على ما في كتابه هذا من الاعتزال إلا بالمناقش - يعني أنه خفي - كما أن الشوكة لا تخرج إلا بمناقش، كذلك لا يمكن أن يخرج الإنسان اعتزاليات صاحب الكشف إلا بالمناقش، وضرب لهذا مثلاً: قال: إنه قال: - عفا الله عنا وعنه - في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، قال: أي فوز أعظم من أن يزحزح الإنسان عن النار ويدخل الجنة، هذا الكلام

لا أحد يشعر بأن فيه انحرافاً، لكن إذا علمنا أن الرجل ذكيٌّ، وأنه يغلف المعاني بما يخفى على كثير من الناس، فهو يريد بهذا أن ينكر الرؤية أعني رؤية الرب؛ لأن رؤية الرب أعظم فوزاً من أن يدخل الإنسان الجنة ويزحزح عن النار، لكن الرجل ذكي، فمثل هذه العبارة يقرأها الإنسان على أنها عبارة سليمة ليس فيها شيء، ولكن ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب.

الحاصل أن الإنسان لو رجع إلى تفسير الزمخشري وأعجبه بلاغته وحسن أسلوبه لكنه صغير ليس عنده علم، نقول: لا بد أن ينبه على هذا، ويقال: خذ ما يتعلق بالبلاغة، وما يتعلق بالمعنى، لكن احذر مسألة العقيدة^(١).

ثامناً: آيات الأحكام أذكر فيها الراجع من أقوال العلماء بأدلتها:

من الكتاب والسنة، وأذكر الأئمة الذين قالوا به، أمّا تفصيل المسائل الفقهية بطريقة مقارنة مطولة فموضعه كتب الفقه حتى لا أخرج عن هدف الكتاب.

هذه جملة من الأصول التي سلكتها في تصنيف هذا الكتاب، ومن الله القبول، وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) تفسير سورة المائدة لابن عثيمين (آية: ٤١).

جمل من فضائل القرآن

هذا باب عظيم النفع، صَنَّف فيه العلماء مصنفاتٍ كثيرةً تدلُّ على عِظَم هذا الكتاب وفضله، وفضل من تعلَّمه، وفضل تعليمه بإخلاص النية لله جلَّ في علاه، فمن فضائله:

١ - أنه كلام الله تعالى:

أجمع علماء أهل السنة أن القرآن كلام الله غير مخلوق^(١)، تكلم به سبحانه وتعالى بصوت وحروف^(٢)، -صوت يليق بجلاله وعظمته من غير تشبيه بالمخلوق، ولا تمثيل، ولا تكيف، ومن غير تعطيل ولا تحريف، الله تعالى ليس كمثله شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، وسمعه منه جبريل عليه

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر: السنة للإمام أحمد بن حنبل (ص: ٢٦)، والسنة لعبدالله بن أحمد (١ / ٢٨٠ - ٢٨١)، والرد على الجهمية للدارمي (ص: ١٦٧ - ١٦٨)، وعقيدة السلف وأصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني (ص: ٢٦٢)، وخلق أفعال العباد للإمام البخاري (ص: ١٣٧)، والحجة في بيان المحجة لقوام السنة أبي القاسم الأصبهاني (ص: ٣٧٦ - ٣٧٧)، والشرية للأجري (ص: ٦٣)، والإبانة لابن بطة (٣ / ٢٢٦)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (٢ / ٣٢٢)، وكتب شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم مليئة بهذه العقيدة.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيَنَادِي بِصَوْتٍ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ»، أخرجه البخاري (٧٤٨٣)، ومسلم (٢٢٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وانظر: العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص: ٢٧١، ٣١٨) بشرح ابن عثيمين - ط. دار ابن الجوزي، والسنة لعبد الله بن أحمد (١ / ٢٨٠ - ٢٨١)، وخلق أفعال العباد للبخاري (ص: ١٣٧)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٦ / ٥٢٧ - ٥٣٣).

السلام، ونزل به على نبينا محمد ﷺ، فسمعه منه وحفظه في صدره، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾: أي القرآن .. ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: أنزله الله عليك وأوحاه إليك ... ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾: هو جبريل عليه السلام، قاله غير واحد من السلف^(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دلّ عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته فكلامه قائم بذاته^(٢) ليس مخلوقاً بائناً عنه^(٣).

٢- يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع آخرين:

قال عمر رضي الله عنه: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦ / ١٦٢)، ومعالم التنزيل للبغوي (٣ / ٤٧٨)، وتفسير الطبري (١٩ / ٣٩٦)، وغيرهم.

(٢) كلام الله من الصفات الذاتية الفعلية - قال ابن عثيمين رحمه الله: من الصفات ما هو صفة ذاتية وفعلية باعتبارين - فالكلام صفة فعلية باعتبار آحاده، لكن باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله لم يزل ولا يزال متكلمًا، لكنه يتكلم بما شاء متى شاء - شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية (ص: ٥٢) ط. دار ابن الجوزي

(٣) مجموع الفتاوى (١٢ / ٣٧).

أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»^(١).

أراد يرفع حافظيه والعاملين به، ويضع المضيعين لحقه، المفرطين في أمره^(٢).

٣- الماهر بالقرآن مع الملائكة:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ»^(٣).

التتعتع: التردد في الكلام عيًّا وصعوبةً، وإنما كان له أجران من حيث التلاوة ومن حيث المشقة، ودرجات الماهر فوق ذلك كله، لأنه قد كان القرآن متعتعًا عليه، ثم ترقى عن ذلك إلى أن شُبَّهَ بالملائكة^(٤).

٤- التبع لله تعالى بتلاوة القرآن وثواب التلاوة:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ»^(٥).

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٨١٧).

(٢) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي (١ / ١٥٠).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨)، واللفظ له.

(٤) تفسير القرطبي (١ / ٧).

(٥) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، واللفظ له، والبيهقي في الشعب (١٩٨٣)، وأبو

نعيم في الحلية (٦ / ٢٦٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٩١٠) من

حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- صاحب القرآن يرتقي في درجات الجنة بقدر ما معه من الآيات:

قال رسول الله ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْقُ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا»^(١).

يقال، أي عند دخول الجنة وتوجُّه العاملين إلى مراتبهم على حسب مكاسبهم (لصاحب القرآن)، أي من يلزمه بالتلاوة والعمل لا من يقرؤه وهو يلعبه (اقرأ وارتق)، أي إلى درجات الجنة أو مراتب القرب (ورتل)، أي لا تستعجل في قراءتك في الجنة التي هي لمجرد التلذذ والشهود الأكبر لعبادة الملائكة (كما كنت ترتل)، أي قراءتك، وفيه إشارة إلى أن الجزاء على وفق الأعمال كمية وكيفية (في الدنيا) من تجويد الحروف ومعرفة الوقوف الناشئ عن علوم القرآن ومعارف الفرقان (فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)^(٢).

٦- قارئ القرآن الذي تعلَّمه وعَلَّمه خيرُ الناس:

قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»^(٣).

الحديث يدل أن قراءة القرآن أفضل أعمال البر كلها؛ لأنه لما كان من تعلم القرآن أو علمه أفضل الناس وخيرهم دلَّ ذلك على ما قلناه؛ لأنه إنما وجبت له الخيرية والفضل من أجل القرآن، وكان له فضل التعليم جاريًا ما

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٦٤)، والترمذي (٢٩١٤)، والنسائي في الكبرى

(٨٠٠٢)، وأحمد (٦٧٩٩)، واللفظ له، وصححه إسناده أحمد شاكر في تخريج

أحاديث المسند (١١ / ٥٥) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري (٤ / ١٤٦٩).

(٣) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٢٧، ٥٠٢٨)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دام كل من علمه تالياً^(١).

٧- القرآن أفضل أنواع الذكر:

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الْأُتْرُجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحُنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»^(٢).

قوله: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن) عبر بالمضارع لإفادة تكريره لها ومداومته عليها حتى صارت دأبه وعادته، كفلان يقرئ الضيف ويحامي الحريم يعطي، وفي رواية يقرأ القرآن ويعمل به (كمثل الأترجة) بضم الهمزة وسكون الفوقانية وضم الراء وسكون النون وبتخفيف الجيم وفيه لغات، قال في القاموس: الأترج والأترجة والترنجة والترنج معروف، وهي أحسن الثمار الشجرية وأنفسها عند العرب انتهى.

ووجه التشبيه بالأترجة لأنها أفضل ما يوجد من الثمار في سائر البلدان وأجدى لأسباب كثيرة جامعة للصفات المطلوبة منها والخواص الموجودة فيها فمن ذلك كِبَرُ جرمها وحسن منظرها وطيب مطعمها ولين ملمسها تأخذ الأبصار صبغةً ولوناً فاقع لونها تسر الناظرين تتوق إليها النفس قبل التناول تفيد أكلها بعد الالتذاذ بذوقها طيب نكهة ودباغ معدة وهضم

(١) انظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠ / ٢٦٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٧٩٧).

واشترك الحواس الأربع البصر والذوق والشم واللمس في الاحتطاء بها^(١).

٨- الاسترقاء بالقرآن:

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَرَضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِالْمُعَوَّذَاتِ، فَلَمَّا مَرَضَ مَرَضُهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، جَعَلْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُهُ بِيَدِ نَفْسِهِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةٍ مِنْ يَدِي»^(٢).

وفي هذا الحديث استحباب الرقية بالقرآن وبالأذكار وإنما رقى بالمعوذات لأنهن جامعات للاستعاذة من كل المكروهات جملة وتفصيلاً ففيها الاستعاذة من شر ما خلق فيدخل فيه كل شيء ومن شر النفاثات في العقد ومن السواحر ومن شر الحاسدين ومن شر الوسواس الخناس، والله أعلم^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقرؤهم، فبينما هم كذلك، إذ لدغ سيد أولئك، فقالوا: هل معكم من دواء أو راقٍ؟ فقالوا: إنكم لم تقرؤنا، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً، فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء، فجعل يقرأ بأَم القرآن، ويجمع بزاقه ويَتَنَفَّلُ، فَبَرَأَ فَأَتُوا بِالشاء، فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ، فسأله فضحك وقال: «وَمَا أَذْرَاكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ، خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهُمٍ»^(٤).

وجه الدلالة: أن رسول الله ﷺ، أقره على أن فاتحة الكتاب رقية.

«فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير فإنه جامع

(١) انظر: تحفة الأحوذى للمباركفوري (٨ / ١٣٣ - ١٣٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٩٢).

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم (١٤ / ١٨٣).

(٤) صحيح: أخرجه البخاري (٥٧٣٦).

لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة والتي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكير حتى مرَّ بآية وهو محتاجٌ إليها في شفاء قلبه كرَّرها ولو مائة مرة ولو ليلة، فقراءة آية بتفكير وتفهم خيرٌ من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف يردُّ أحدهم الآية إلى الصباح، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ٧٨]^(١)، فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب^(٢).

٩- أهل القرآن هم أهل الله وخاصته:

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ» فِقِيلَ: مَنْ أَهْلُ اللَّهِ مِنْهُمْ؟ قَالَ: «أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»^(٣).
إضافة أهل القرآن إلى الله تعالى إضافة تشريف.

قوله ﷺ: هم أهل الله وخاصته، أي: المختصون به، بمعنى أنه لما قرَّبهم

(١) حسن: أخرجه النسائي (١٠١٠)، وابن ماجه (١٣٥٠)، وأحمد (٢١٣٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٣٥٠).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ٥٥٣).

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢١٥)، وأحمد (١٢٢٧٩)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢١٥)، وصحيح الجامع (٢١٦٥).

واختصهم كانوا كأهله، ومنه قيل لأهل مكة: أهل الله لما كانوا سكان بيته وما حوله كانوا كأهله^(١).

قال الحكيم الترمذي رحمه الله: وإنما يكون هذا في قارئ انتفى عنه جور قلبه وذهب جنائيه نفسه فأمنه القرآن فارتفع في صدره وتكشف له عن زينته ومهابته فمثله كعروس مزين مد يده إليها دنس متلوث متلطخ بالقذر، فهي تعافه وتتقذره فإذا تطهر وتزين وتطيب فقد أدى حقها وأقبلت إليه بوجهها فصار من أهلها، فكذا القرآن فليس من أهله إلا من تطهر من الذنوب ظاهراً وباطناً وتزين بالطاعة كذلك، فعندها يكون من أهل الله^(٢).

١٠ - القرآن يشفع لأصحابه يوم القيامة:

قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيأتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»^(٣).

(١) انظر: فيض القدير (٢/ ٤٩٥).

(٢) انظر: فيض القدير (٣/ ٦٧).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٨٠٤)، من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

جمل من آداب حامل القرآن

من رُزِقَ حفظ القرآن فقد أُعطي أجلّ المنن وأعظم النعم، فمن أراد دوام النعم فعليه بالشُّكر، فالشُّكر قيدُ النعم، ومتى كفر وجحد زالت النعم، وربما نزلت العقوبات.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ﴿٧﴾ [إبراهيم].

فينبغي لحامل القرآن أن يأخذ نفسه بجمل من الآداب، منها:

١ - الإخلاص في طلب القرآن، والحذر من الرياء:

قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١١٠﴾ [الكهف].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتُ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ

الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»^(١).

قال النووي رحمه الله: لا يقصد به توصلاً إلى غرض من أغراض الدنيا من مالٍ أو رياسةٍ أو وجاهةٍ أو ارتفاعٍ على أقرانه أو ثناءٍ عند الناس أو صرفٍ وجوه الناس إليه أو نحو ذلك، ولا يشوبُ عند المقرئ إقراءه بطمع في رفق يحصل له من بعض من يقرأ عليه سواء كان الفرق مالاً أو خدمةً وإن قلَّ ولو كان على صورة الهدية التي لو لا قراءته عليه لما أهداها إليه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] الآية، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢)، رواه أبو داود بإسناد صحيح، ومثله أحاديث كثيرة، وعن أنس، وحذيفة، وكعب بن مالك رضي الله

(١) صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وأحمد (٨٤٥٧)، وصححه

الألباني في صحيح أبي داود (٣٦٦٤).

عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يُكَاثِّرَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١)، رواه الترمذي من رواية كعب بن مالك، وقال: أَدْخَلَهُ النَّارَ.

(فصل) وليحذر كل الحذر من قصده التكثير بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين إليه، وليحذر من كراهته قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين، وهي دلالة بينة من صاحبها على سوء نيته وفساد طَوِيَّتِهِ، بل هي حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم^(٢).

٢- ينبغي لصاحب القرآن أن يتخلق بآداب الشرع، وليحذر من أمراض القلوب:

فعليه «أن يتخلق بآداب الشرع من الخلال الحميدة، والشِّيم المرضية، والزهادة في الدنيا والتقلل منها، وعدم الالتفات إليها، وإلى أهلها، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه والحلم والصبر والتزهر عن دنئ الاكتساب، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع، واجتناب الضحك والإكثار من المزاح، وليعتن بالتنظيف بإزالة الأوساخ والشعور التي ورد الشرع بإزالتها، كقص الشارب وتقليم الأظفار وتسريح اللحية وإزالة الروائح الكريهة والملابس

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٢٥٣)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٥٣).

(٢) مختصر التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ١٣).

المكروهة، ويراقب الله تعالى في جميع تقلباته في سره وعلايته

(فصل): وليحذر كل الحذر من أمراض القلوب كالحسد والعجب والرياء واحتقار الناس والارتفاع عليهم وإن كانوا دونه، وعليه أن لا يرى نفسه خيرًا من أحد»^(١).

٣- ذم النفس ودوام المحاسبة والمراقبة لله تعالى:

قال أبو العالية رحمه الله: «يأتي على الناس زمان تحرب صدورهم من القرآن ولا يجدون له حلاوة ولا لذاعة، إن قصرُوا عما أمرُوا به قالوا: إن الله غفور رحيم، وإن عملوا بما نهوا عنه قالوا: سيغفر لنا إنا لم نشرك بالله شيئاً، أمرهم كله طمع ليس معه صدق، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أفضلهم في دينه المداهن»^(٢).

قال الأحنف بن قيس رحمه الله: «عرضت نفسي على القرآن فلم أجد نفسي بشيء أشبه مني بهذه الآية: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]»^(٣).

٤- المداومة على قراءة القرآن وتدبره:

ينبغي لحامل القرآن المداومة على قراءته وعدم هجرته، مع التدبر والتفكير والتأمل وإنزال معاني القرآن على القلب ليثمر التأثير ومن ثم

(١) ما بين القوسين من المصدر السابق.

(٢) انظر: الزهد للإمام أحمد (١٧٤١).

(٣) انظر: الزهد للإمام أحمد (١٣٠٧).

العمل به، وهو الغاية من حفظه وتلاوته.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان].

قال ابن كثير رحمه الله: وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يسمعون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت]، وكانوا إذا تلى عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره، حتى لا يسمعه، فهذا من هجرانه، وترك علمه وحفظه أيضا من هجرانه، وترك الإيمان به وتصديقه من هجرانه، وترك تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره - من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه^(١).

قال مالك بن دينار رحمه الله: «يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم فإن القرآن ربيع المؤمنين كما أن الغيث ربيع الأرض، فقد ينزل الغيث من السماء فيصيب الحش في الحبة ولا يمنعه نتن موضعها أن تهتز وتخضر وتحسن فيه»^(٢).

قال عمرو بن مرة رحمه الله: «أكره أن أمر بمثل في القرآن فلا أعرفه» لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٠٨).

(٢) انظر: الزهد للإمام أحمد (١٨٦١).

الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ [العنكبوت] «^(١)».

٥- ينبغي لحامل القرآن أن يتعاهده، ويحمل نفسه على قراءته في الليل والنهار، في الصلاة وغير الصلاة:

«ينبغي أن يحافظ على قراءة القرآن في الليل، ويكون إعتناؤه بها فيه أكثر وفي صلاة الليل أكثر؛ لأن الليل أجمع للقلب، وأبعد من الشاغل والملهيات والتصرف في الحاجات، وأصون من تطرُّق الرياء، وغيره من المحبطات مع ما جاء في الشرع من إيجاد الخيرات في الليل كل إسراء، وحديث النزول^(٢)، وحديث: في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاء كل ليلة، وقد تظاهرت نصوص القرآن والسنة وإجماع الأمة على فضيلة القراءة والقيام بالليل، والحث عليه، وذلك يحصل بالكثير، والقليل، وما كثر أفضل إلا أن يستوعب الليل كله؛ فإنه يُكره الدوام عليه، وكذا يُكره أن أضرَّ بنفسه ما دون الجميع»^(٣).

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ نَامَ عَنْ حَزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ

(١) انظر: حلية الأولياء (٢/ ١٥٣).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: مختصر التبيان (٢/ ١٥٣).

صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»^(١).

وقال ﷺ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ هُوَ أَشَدُّ تَفْصِيًّا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا»^(٢).

وقوله ﷺ: «تَعَاهَدُوا الْقُرْآنَ»، أي تفقدوه وراعهه بالمحافظة وداوموه بالتلاوة. قال الطيبي: التعااهد المحافظة وتجديد العهد، أي واطبؤوا على قراءته وداوموا على تكرار دراسته لئلا ينسى (فوالذي نفسي بيده هو)، أي القرآن (أشد تفصيًّا)، أي فرارًا وذهابًا وتخلصًا وخروجًا (من الإبل) ^(٣).

٦- من آداب حامل القرآن أن يكون على أكمل الأحوال، وأكرم

الشئائل:

وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه إجلالًا للقرآن وأن يكون مصونًا عن دنيء الإكتساب شريف النفس مترفع على الجبابة والجفأة من أهل الدنيا متواضعًا للصالحين وأهل الخير والمساكين وأن يكون متخشعًا ذا سكينَةٍ ووقارٍ، وفقد جاء عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال : يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضع لكم الطريق فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالًا على الناس. وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال : ينبغي

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٧٤٧)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١)، من حديث أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح (٤ / ١٤٩٥)، والتوضيح شرح الجامع الصحيح (٢٤ / ١٣٧)، وفيض البقدير (٣ / ٢٤٩).

حامل القرآن أن يُعَرَفَ بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مُفْطَرُونَ، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وعن الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن من كان قبلكم رأوا القرآن رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها في النهار. وعن الفضيل بن عياض قال: ينبغي لحامل القرآن ألا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء فمن دونهم. وعنه أيضاً، قال: حامل القرآن حامل راية الإسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن^(١).

(١) انظر: مختصر التبيان في آداب حملة القرآن (ص: ٢٨).

أسباب اختلاف العلماء في التفسير

الخلاف بين علماء أهل السنة والجماعة في التفسير قليل، وأكثر الخلاف بينهم يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

أولاً: اختلاف التنوع:

معنى اختلاف التنوع: أن يكون لتفسير الآية الواحدة معانٍ متنوعةً غير متعارضة، بحيث يصحُّ حملُ الآية على جميع هذه المعاني^(١).

قال ابن القيم رحمه الله: هذا هو المعهود من ألفاظ القرآن كلها أنها تكون دالة على جملة معانٍ فيعبر هذا عن بعضها، وهذا عن بعضها، واللفظ يجمع ذلك كله^(٢).

وقال الشنقيطي رحمه الله: تقرر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتمل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع^(٣).

مثال لاختلاف التنوع:

اختلاف المفسرين في معنى «الصراط المستقيم» فقليل معناه: القرآن، أي: اتباع القرآن، وقال بعضهم: الإسلام، فالقولان متفقان، لأن دينَ الإسلام هو اتباعُ القرآن، ولكن كلُّ منهما نبّه على وصفٍ غير الوصف

(١) انظر: حاشية مقدمة التفسير لابن قاسم (ص: ١١٤)، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي (٦ / ٢٢٧٨) ط. الأوقاف السعودية، وشرح مقدمة أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٢٣) ط. مكتبة السنة، والتفسير والمفسرون للذهبي (١ / ٩٨)، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري (١ / ٤٩ - ٥٠).

(٢) جلاء الأفهام (ص: ٣٥٤).

(٣) أضواء البيان (٣ / ١٤٩).

الآخر.

كما أن لفظ «صراط» يُشعر بوصف ثالث.
وكذلك قول من قال: هو السنة والجماعة، وقول من قال: هو طريق
العبودية، وقول من قال: هو طاعة الله ورسوله، وأمثال ذلك.
فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة -«أي: الصراط المستقيم»-،
ولكن وضعها كل منهم بصفة من صفاتها^(١).

أصناف اختلاف التنوع:

اختلاف التنوع صنفان:

أحدهما: أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير صاحبه تدلُّ
على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتِّحاد المسمى،
كتفسيرهم «الصراط المستقيم»، كما تقدم.

الثاني: أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل
التمثيل وتنبية المستمع على النوع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في
عمومه وخصوصه.

مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
يَاذِنُ اللَّهُ﴾ [فاطر: ٣٢]، فمعلوم أن الظالم لنفسه: يتناول المضيع للواجبات،
والمنتهك للمحرمات، والمقتصد: يتناول فاعل الواجبات وتارك

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (٦/ ٢٢٧٨) ط. الأوقاف السعودية، وشرح
مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٢٦ - ٢٧) ط. مكتبة السنة.

المحرمات، والسابق: يدخل فيه من سبق، فتقرب بالحسنات مع الوجبات، فالمقتصدون أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

ثم تجد كل مفسر منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق الذي يصلي أول الوقت، والمقتصد الذي يصلي أثناء الوقت، والظالم لنفسه: الذي يؤخر العصر إلى الإصفرار.

أو يقول: السابق: المحسن بالصدقة مع الزكاة، والمقتصد يؤدي الزكاة المفروضة فقط، والظالم مناع للزكاة.

قال: وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير، تارةً لتنوع الأسماء والصفات^(١)، وتارةً لذكر بعض أنواع المسمى، وهو الغالب في تفسير سلف الأمة الذي يظن أنه مختلف^(٢).

ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين:

إمّا لكونه مشتركاً في اللغة، كلفظ "قسورة" الذي يراد به الرامي ويراد به الأسد، ولفظ "عسعس" الذي يراد به إقبال الليل وإدباره، وإمّا لكونه متواطئاً في الأصل لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين، كالضمائر في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم]، الآية، وكلفظ الفجر والشفع والوتر وليال عشر وأشباه ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يراد كل المعاني التي قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك.

فالأول: إمّا لكون الآية نزلت مرتين، فأريد بها هذا تارةً، وهذا تارةً،

(١) أسماء وصفات الأشياء، وليس المقصود أسماء وصفات الله تعالى.

(٢) انظر: المصدر السابق.

وإمّا لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه، وإما لكون اللفظ متواطئاً فيكون عامّاً إذا لم يكن لمخصّصه موجب، فهذا النوع إذا صحّ فيه القولان كان من الصنف الثاني.

ومن الأقوال الموجودة عنهم - ويجعلها بعض الناس اختلافاً - أن يعبروا عن المعاني بالفاظ متقاربة كما إذا فسر بعضهم ﴿تُبَسَّلَ﴾ [الأنعام: ٧٠]، بـ: "تجسس"، وبعضهم بـ "ترتهن"، لأن كلا منهما قريب من الآخر^(١).

ثانياً: اختلاف التضاد:

معنى اختلاف التضاد: عرف ابن تيمية أنه: القولان المتنافيان، إمّا في الأصول وإمّا في الفروع^(٢).
وقيل: اختلاف التضاد لا يمكن الجمع فيه بين القولين، لأن الضدين لا يجتمعان^(٣).

أمثلة لاختلاف التضاد:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].
اختلف العلماء في معنى القرء على قولين^(٤):

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي (٦ / ٢٢٧٩ - ٢٢٨٠) ط. الأوقاف السعودية، وشرح مقدمة أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٢٧ - ٤٠) ط. مكتبة السنة.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ١٥١).

(٣) انظر: مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٢٠) بشرح العثيمين.

(٤) انظر: تفسير الطبري (٤ / ٢٩٩)، وتفسير ابن كثير (١ / ٦٠٧)، والجامع لأحكام =

أحدها: أن القرء هو الحيض.

الثاني: القرء هو الطهر.

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة].

للعلماء قولان^(١) في جنس إبليس هل هو من الجن أم من الملائكة؟

القول الأول: إنه من الجن، وحجة أصحاب هذا القول أن الاستثناء

في الآية منفصل، ومن ثمَّ إبليس ليس من الملائكة^(٢).

القول الثاني: قال أصحاب هذا القول إن الاستثناء في الآية متصل،

وبناءً على ذلك إبليس من الملائكة^(٣)، فالقول الأول مضاد للقول الثاني، كما هو ظاهر.

هذه بعض من الأمثلة على اختلاف التضاد، وهو قليل جداً والله

الحمد والمنة.

وما تقدم سردٌ مختصرٌ لسبب اختلاف المفسرين، أمّا التوسع في هذا

الباب فموضعه كتب علوم القرآن، ومن أهمّها: كتاب مقدمة في أصول

التفسير لابن تيمية رحمه الله.

=

القرآن (٣ / ١١٣).

(١) انظر: جامع البيان (١ / ٥٠٢ - ٥٠٨)، وتفسير ابن كثير (١ / ٢٣٠ - ٢٣٣)، وتفسير

القرطبي (١ / ٢٩٤ - ٢٩٨).

(٢) انظر: محاسن التأويل (١ / ٢٩٠ - ٢٩١)، وتفسير ابن جزي (١ / ٧٩).

(٣) المصدر السابق.

نزول القرآن على سبعة أحرف

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ، قال: «أَقْرَأَنِي جَبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَا جَعْتُهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ»^(١).

معناه لم أزل أطلب منه أن يطلب من الله الزيادة في الحرف للتوسعة والتخفيف، ويسأل جبريل ربّه سبحانه وتعالى فيزيده حتى انتهى إلى السبعة^(٢).

معنى السبعة أحرف:

قال القرطبي رحمه الله: وقد اختلف العلماء في المراد بالأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً، ذكرها أبو حاتم محمد بن حبان البستي، نذكر منها في هذا الكتاب خمسة أقوال:

الأول: وهو الذي عليه أكثر أهل العلم كسفيان بن عيينة وعبد الله بن وهب والطبري والطحاوي وغيرهم: أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة باللفاظ مختلفة، نحو أقبل وتعال وهلمّ.

قال الطحاوي رحمه الله: وأبين ما ذكر في ذلك حديثُ أبي بكرة قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، فقال اقرأ على حرف، فقال ميكائيل: استزده، فقال: اقرأ على حرفين، فقال ميكائيل: استزده، حتى بلغ إلى سبعة أحرف،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩٩١)، ومسلم (٨١٩).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٦/ ١٠١)، ومرقاة المفاتيح (٤/ ١٥٠٨)، وفيض

القدير (٢/ ٦٨).

فقال: اقرأ فكل شاف كاف إلا أن تخط آية رحمة بآية عذاب، أو آية عذاب بآية رحمة، على نحو هلم وتعال وأقبل واذهب وأسرع وعجل.

وروى ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب أنه كان يقرأ: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنظُرُوا﴾ [الحديد: ١٣]: للذين آمنوا أمهلونا، للذين آمنوا آخرونا، للذين آمنوا ارقبونا، وبهذا الإسناد عن أبي أنه كان يقرأ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠]: مروا فيه، سعوا فيه، وفي البخاري ومسلم قال الزهري: إنما هذه الأحرف في الأمر الواحد ليس يختلف في حلال ولا حرام.

قال الطحاوي رحمه الله: إنما كانت السعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غير لغاتهم، لأنهم كانوا أميين لا يكتب إلا القليل منهم، فلما كان يشقُّ على كل ذي لغة أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهياً له إلا بمشقة عظيمة، فوسَّع لهم في اختلاف الألفاظ إذ كان المعنى متفقاً، فكانوا كذلك حتى كثر منهم من يكتب وعادت لغاتهم إلى لسان رسول الله ﷺ، فقدروا بذلك على تحفظ ألفاظه، فلم يسعهم حينئذ أن يقرءوا بخلافها.

قال ابن عبد البر رحمه الله: فبان بهذا أن تلك السبعة الأحرف إنما كان في وقت خاص لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف، وعاد ما يقرأ به القرآن على حرف واحد. روى أبو داود عن أبي، قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا أبي إني أقرئت القرآن فقليل لي على حرف أو حرفين فقال الملك الذي معي قل على حرفين فقليل لي على

حرفين أو ثلاثة فقال الملك الذي معي قل على ثلاثة حتى بلغ سبعة أحرف ثم قال ليس منها إلا شاف كاف إن قلت سميعاً عليماً عزيزاً حكيمًا ما لم تخلط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب.

وأسند ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه. قال القاضي ابن الطيب: وإذا ثبت هذه الرواية - يريد حديث أبي - حمل على أن هذه كان مطلقاً ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يبدلوا اسماً لله تعالى في موضع بغيره مما يوافق معناه أو يخالف.

القول الثاني: قال قوم: هي سبع لغات في القرآن على لغات العرب كلها، يمينها ونزارها، لأن رسول الله ﷺ، لم يجهل شيئاً منها، وكان قد أوتي جوامع الكلم، وليس معناه أن يكون في الحرف الواحد سبعة أوجه، ولكن هذه اللغات السبع متفرقة في القرآن، فبعضه بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة اليمن.

قال الخطابي رحمه الله: على أن في القرآن ما قد قرئ بسبعة أوجه، وهو قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، وقوله: ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢]، وذكر وجوهاً، كأنه يذهب إلى أن بعضه أنزل على سبعة أحرف لا كله، وإلى هذا القول بأن القرآن أنزل على سبعة أحرف، على سبع لغات ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام، واختاره ابن عطية.

قال أبو عبيد: وبعض الأحياء أسعد وأكثر حظاً فيها من بعض، وذكر حديث ابن شهاب، عن أنس، أن عثمان قال لهم حين أمرهم أن يكتبوا المصاحف: ما اختلفتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش، فإنه نزل بلغتهم، ذكره

البخاري وذكر حديث ابن عباس، قال: نزل القرآن بلغة الكعبيين، كعب قريش وكعب خزاعة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن الدار واحدة.

قال أبو عبيد: يعني أن خزاعة جيران قريش فأخذوا بلغتهم.

قال القاضي ابن الطيب رضي الله عنه: معنى قول عثمان نزل بلسان قريش، يريد معظمه وأكثره، ولم تقم دلالة قاطعة على أن القرآن بأسره منزل بلغة قريش فقط، إذ فيه كلمات وحروف هي خلاف لغة قريش، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ولم يقل قرشيًا، هذا يدل على أنه منزل بجميع لسان العرب، وليس لأحد أن يقول: أنه أراد قرشيًا من العرب دون غيرها، كما أنه ليس له أن يقول: أراد لغة عدنان دون قحطان، أو ربيعة دون مضر، لأن اسم العرب يتناول جميع هذه القبائل تناولاً واحداً.

وقال ابن عبد البر رحمه الله: قول من قال إن القرآن نزل بلغة قريش معناه عندي في الأغلب والله أعلم، لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها، وقريش لا تهمز.

وقال ابن عطية: معنى قول النبي ﷺ: أنزل القرآن على سبعة أحرف، أي فيه عبارة سبع قبائل بلغة جملتها نزل القرآن، فيعبر عن المعنى فيه مرة بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك بحسب الأفصح والأوجز في اللفظ، ألا ترى أن: فَطَرَ، معناه عند غير قريش: ابتداء خلق الشيء وعمله، فجاءت في القرآن فلم تتجه لابن عباس، حتى اختصم إليه أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُهَا، قال ابن عباس: ففهمت حينئذ

موضع قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].
 وقال أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩]، حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعال أفتحك، أي أحاكمك. وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]، أي على تنقص لهم. وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي ﷺ يقرأ في الصلاة: ﴿وَالنَّحْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق: ١٠]، ذكره مسلم في باب (القراءة في صلاة الفجر) إلى غير ذلك من الأمثلة.

القول الثالث: أن هذه اللغات السبع إنما تكون في مضر، قاله قوم، واحتجوا بقول عثمان: نزل القرآن بلغة مضر، وقالوا: جائز أن يكون منها لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيمة، ومنها لضبة، ومنها لقيس، قالوا: هذه قبائل مصر تستوعب سبع لغات على هذه المراتب، وقد كان ابن مسعود يحب أن يكون الذين يكتبون المصاحف من مضر. وأنكر آخرون أن تكون كلها من مضر، وقالوا: في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن بها، مثل كشكشة قيس وتمتمة تميم، فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شيئاً فيقولون في: ﴿جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]: جعل ربش تحتش سرياً، وأما تمتمة تميم فيقولون في الناس: النات، وفي أكياس: أكيات. قالوا: هذه لغات يرغب عن القرآن بها، ولا يحفظ عن السلف فيها شيء. وقال آخرون: أما إبدال الهمزة عيناً وإبدال حروف الحلق بعضها من بعض فمشهور عن الفصحاء، وقد قرأ به الجِلَّةُ، واحتجوا

بقراءة ابن مسعود: ليسجننه عتي حين، ذكرها أبو داود، وبقول ذي الرمة:

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولونك إلا عنها غير طائل

يريد إلا أنها.

القول الرابع: ما حكاه صاحب الدلائل عن بعض العلماء، وحكى

نحوه القاضي ابن الطيب قال: تدبرت وجوه الاختلاف في القراءة فوجدتها سبعا: منها ما تتغير حركته، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل: ﴿هَنَّ أَظْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] .. وأظهر، .. ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾ [الشعراء: ١٣] ويضيق.

ومنها ما لا تتغير صورته ويتغير معناه بالإعراب، مثل: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنَ أَصْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩] وباعد.

ومنها ما تبقى صورته ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل قوله: ﴿نُنَشِّرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] ونشرها.

ومنها ما تتغير صورته ويبقى معناه: ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة] وكالصفوف المنفوش.

ومنها ما تتغير صورته ومعناه، مثل: ﴿وَطَلَعَ مَنضُودٍ﴾ [الواقعة] وطلع منضود.

ومنها بالتقديم والتأخير كقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩] وجاءت سكرة الحق بالموت.

ومنها بالزيادة والنقصان، مثل قوله: ﴿تَسْعُ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً أَنْثَى﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ لَهْنُ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾.

القول الخامس: أن المراد بالأحرف السبعة معاني كتاب الله تعالى، وهي أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال.

قال ابن عطية: وهذا ضعيف لأن هذا لا يسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع على أن التوسعة لم تقع في تحليل حلال ولا في تغير شيء من المعاني. وذكر القاضي ابن الطيب في هذا المعنى حديثاً عن النبي ﷺ، ثم قال: ولكن ليست هذه هي التي أجاز لهم القراءة بها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة، منه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]، فكذاك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك.

وقد قيل: إن المراد بقوله عليه السلام: أنزل القرآن على سبعة أحرف، القراءات السبع التي قرأ بها القراء السبعة، لأنها كلها صحت عن رسول الله ﷺ، وهذا ليس بشيء لظهور بطلانه على ما يأتي^(١).

هل الأحرف السبعة هي القراءات السبع؟

ذهب جماهير أهل العلم من السلف والخلف إلى أن الأحرف السبعة ليست هي القراءات السبع.

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: فأما هذه القراءات السبع التي تُنسب لهؤلاء القراء السبعة، فقال كثير من علمائنا؛ كالداودي، وابن أبي صفرة وغيرهما: إنها ليست هي الأحرف السبعة التي اتسعت الصحابة

(١) تفسير القرطبي (١/ ٤٢-٤٦)، وانظر: فتح الباري لابن حجر (٩/ ٢٤-٢٩)،

وشرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٢٨-٢٣٦).

رضي الله عنهم في القراءة بها، وإنما هي راجعة إلى حرفٍ واحدٍ من تلك السبعة، وهو الذي جمع عليه عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المصحف؛ ذكره ابن النحاس، وغيره^(١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: فتبين بما ذكرناه أن القراءات المنسوبة إلى نافع وعاصم ليست هي الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها وذلك باتفاق علماء السلف والخلف، وكذلك ليست هذه القراءات السبعة هي مجموع حرف واحد من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها باتفاق العلماء المعبرين، بل القراءات الثابتة عن أئمة القرآن كالأعمش ويعقوب وخلف وأبي جعفر يزيد بن القعقاع وشيبة بن نصاح ونحوهم هي بمنزلة القراءات الثابتة عن هؤلاء السبعة عند من ثبت ذلك عنده كما ثبت ذلك. وهذا أيضًا مما لم يتنازع فيه الأئمة المتبوعون من أئمة الفقهاء والقراء وغيرهم وإنما تنازع الناس من الخلف في المصحف العثماني الإمامي الذي أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والتابعون لهم بإحسان والأئمة بعدهم هل هو بما فيه من القراءات السبعة وتمام العشرة وغير ذلك هل هو حرف من الأحرف السبعة التي أنزل القرآن عليها أو هو مجموع الأحرف السبعة؟ على قولين مشهورين :

والأول: قول أئمة السلف والعلماء.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس القرطبي (٧/ ٨٢)، وانظر: شرح النووي على مسلم (٦/ ١٠٠)، فتح الباري لابن حجر (٩/ ٣١)، وفضائل القرآن لابن كثير (ص: ١٣٧)، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري (ص: ٤٠).

والثاني: قول طوائف من أهل الكلام والقراء وغيرهم وهم متفقون على أن الأحرف السبعة لا يخالف بعضها بعضاً خلافاً يتضاد في المعنى ويتناقض بل يصدق بعضها بعضاً كما تصدق الآيات بعضها بعضاً. وسبب تنوع القراءات فيما احتمله خط المصحف هو تجويز الشارع وتسويغه ذلك لهم إذ مرجع ذلك إلى السنة والإتباع لا إلى الرأي والابتداع^(١).

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله: وهذه القراءات المشهورة هي اختيارات أولئك الأئمة القراء، وذلك أن كل واحد منهم اختار فيما روى وعلم وجهه من القراءات ما هو الأحسن عنده والأولى، فالتزمه طريقة ورواه وأقرأ به واشتهر عنه، وعرف به ونسب إليه، فقل: حرف نافع، وحرف ابن كثير، ولم يمنع واحد منهم اختار الآخر ولا أنكره بل سَوَّغَهُ وجَوَّزَهُ، وكل واحد من هؤلاء السبعة روى عنه اختاران أو أكثر، وكل صحيح.

وقد أجمع المسلمون في هذه الأعصار على الاعتماد على ما صحَّ عن هؤلاء الأئمة مما رووه ورأوه من القراءات وكتبوا في ذلك مصنفات، فاستمرَّ الإجماع على الصواب، وحصل ما وعد الله به من حفظ الكتاب، وعلى هذا الأئمة المتقدمون والفضلاء المحققون، كالقاضي أبي بكر بن الطيب والطبري وغيرهما.

قال ابن عطية: ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة وبها

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٤ / ٤٢٢).

يُصَلَّى، لأنها ثبتت بالإجماع^(١).

(١) تفسير القرطبي (١ / ٤٦ - ٤٧).

مسائل في الاستعاذة

الله تبارك وتعالى أرحم الراحمين، ومن رحمته بعباده أن أرشدهم وعلمهم كيف يحفظون أنفسهم وأهليهم من كيد أكبر أعدائهم وهو إبليس، فمن كيد الشيطان للعبد صرف قلبه عند تلاوة القرآن، وذلك بإلقاء الوسوس والخواطر في النفس، فينصرف العقل عن التدبر والتفكير والتأمل، الذي يثمر العلم والعمل اللذين بهما نجاة العبد من المهووب، وحصول المطلوب.

فمن رحمته تعالى أن شرع لنا الاستعاذة من الشيطان قبل بدء تلاوة القرآن، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

معنى الاستعاذة:

أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم، أن يضرنني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه. والعيادة: تكون لدفع الشر، واللياذ: يكون لطلب الخير^(١).

قوله: «أعوذ بالله»: يعني التجأ واعتصم وأستجير بك يا الله وأحتمي بك يا الله من شر هذا الشيطان العدو اللدود، الذي يريد أن يفسد علي عبادتي، فالعياذ: هو الاستجارة والاحتماء، فمن استعاذ بميت أو بغائب فقد أشرك بالله، لأن هذه عبادة، ومن استعاذ بحي حاضر فيما يقدر عليه

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٠) بتصرف يسير.

فلا بأس^(١).

«من الشيطان الرجيم»: قال أبو جعفر: الشيطان في كلام العرب: كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء، قال ربنا جل ثناؤه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢]، فجعل من الإنس شياطين، مثل الذي جعل من الجن...، وإنما سمي المتمرد من كل شيء شيطاناً، لفارقة أخلاقه وأفعاله أخلاق سائر جنسه وأفعاله، وبُعده من الخير. وقد قيل: إنه أخذ من قول القائل: شَطَنْتَ دَارِي من دارك - يريد بذلك: بَعُدْتَ.

«الرجيم»: وأما الرجيم فهو: فَعِيل بمعنى مفعول، وتأويل الرجيم: الملعون المشتوم، وكل مشتوم بقولٍ رديء أو سبٍّ فهو مَرْجُومٌ، وأصل الرجم الرَّمْيُ، بقول كان أو بفعل، ومن الرجم بالقول قول أبي إبراهيم لإبراهيم صلوات الله عليه: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [سورة مريم: ٤٦].

وقد يجوز أن يكون قيل للشيطان رجيمٌ، لأن الله جل ثناؤه طرده من سمواته، ورجمه بالشَّهْبِ الثَّاقِبِ^(٢).

من لطائف الاستعاذة:

الاستعاذة هي استعانة بالله، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف،

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١ / ١٠٩ - ١١١) باختصار وتصرف يسير،

وتفسير ابن كثير (٦ / ١٠).

والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يدارى بالإحسان، بخلاف العدو من نوع الإنسان^(١).

«فإن الشيطان لا يكفُّه عن الإنسان إلا الله، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليردّه طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجنّ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميلٌ لأنه شريرٌ بالطبع ولا يكفُّه عنك إلا الذي خلقه، وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن لا أعلم هن رابعة: قوله في الأعراف: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف]، فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر، ثم قال: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [٩٦] وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ [٩٧] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [٩٨] [المؤمنون]، وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٣٤] وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [٣٥] وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [٣٦] [فصلت].

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَنَ إِذَا بَعُدَ، فهو بعيد بطبعه عن

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦ / ٩).

طباع البشر، وبعيدٌ بفسقه عن كل خير، وقيل مشتق من شَاطٍ لأنه مخلوقٌ من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصحُّ^(١).

مواضع الاستعاذة:

أولاً: عند تلاوة القرآن:

والمشهور الذي عليه الجمهور: أن الاستعاذة لدفع الوسواس فيها، إنما تكون قبل التلاوة، ومعنى الآية عندهم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل، ٩٨]، أي: إذا أردت القراءة كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٦]، أي: إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ، بذلك؛ قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا محمد بن الحسن بن آتش، حدثنا جعفر بن سليمان، عن علي بن علي الرفاعي الشكري، عن أبي المتوكل الناجي، عن أبي سعيد الخدري، قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ وَاسْتَقْتَحَ صَلَاتَهُ وَكَبَّرَ قَالَ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، تَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»، وَيَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، مِنْ هَمَزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ»^(٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٨٩٩)، وأحمد (١١٤٧٣).

قال أبو داود: وهذا الحديث، يقولون هو عن علي بن علي، عن الحسن مرسلًا الوهم من جعفر. انتهى.

وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان، عن علي بن علي، وهو الرفاعي، وقال الترمذي: هو أشهر حديث في هذا الباب، وقد فُسِّرَ الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبر، والنفث بالشعر^(١).

حكم الاستعاذة:

أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن، ولا آية منه، وهو قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم^(٢).

ذهب جمهور العلماء من الصحابة والتابعين وفقهاء المذاهب من الحنفية، والشافعية، والحنابلة، وغيرهم^(٣)، إلى إن الاستعاذة سنة مستحبة وليست واجبة لا في الصلاة ولا خارج الصلاة، وحجتهم: حديث النبي ﷺ، فقد علمه الرسول ﷺ الصلاة فقال له: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ»، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ...»^(٤)، فلم يأمره بالاستعاذة، ومن

=

وقال الترمذي: وقد تكلم في إسناد حديث أبي سعيد، كان يحيى بن سعيد يتكلم في علي بن علي الرفاعي، وقال أحمد: «لا يصح هذا الحديث». انتهى.
وقال ابن خزيمة: لا نعلم في الافتتاح بسبحانك اللهم خبراً ثابتاً وأحسن أسانيد حديث أبي سعيد ثم قال لا نعلم أحداً ولا سمعنا به استعمال هذا الحديث على وجهه. انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود: (١ / ٢٨٢).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦ / ٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١ / ١٠٢).

(٣) انظر: فتح القدير لابن الهمام (١ / ٢٩٥)، والمجموع شرح المذهب للنووي (٣ / ٢٨١ - ٢٨٢)، وتفسير ابن كثير (٦ / ٦).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المعلوم عند علماء الأصول أنه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة. وأجابوا على الأمر بالاستعاذة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل]، أنه صرف من الوجوب إلى الاستحباب بحديث «المسيء صلاته» المتقدم.

ثانيًا: الاستعاذة في الصلاة:

تكون قبل القراءة في الركعة الأولى فقط، وهذا مذهب جماهير العلماء^(١)، وحجتهم: حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم في صحيحه، أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا مَهَضَ مِنَ الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ اسْتَفْتَحَ الْقِرَاءَةَ بِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٢).

وجه الدلالة: أن رسول الله ﷺ بدأ القراءة في الركعة الثانية بالفاتحة، ولم يتعوذ، فدلّ ذلك على أن الاستعاذة في الصلاة تكون في الركعة الأولى فقط.

ثالثًا: الاستعاذة عند الغضب:

إذا غضب الإنسان فلا يتعجل في إنفاذ غضبه، ولكن عليه أن يستعيد بالله من الشيطان فيذهب الله عنه الغضب.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت].

(١) انظر: المسبوط للسرخسي (١ / ٨٩ - ٩٠)، والحاوي الكبير للماوردي (٢ / ١٠٢)،

ونيل الأوطار للشوكاني (٢ / ٣١٣)، وتفسير ابن كثير (٦ / ٦).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٥٩٩).

وعن سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا، فَاسْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً، لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ» فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ: «تَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ» فَقَالَ: أَتَرَى بِي بَأْسٌ، أَمْجُنُونُ أَنَا، اذْهَبْ^(١).

صيغة الاستعاذة:

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وأيضاً حديث سليمان بن صرد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ذكرته آنفاً^(٢).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٠٤٨)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) ويذكر بعض أهل العلم صيغة أخرى للاستعاذة، وهي: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ووردت من طريقين:

الأول: من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ كَبَّرَ، ثُمَّ يَقُولُ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ وَتَبَارَكَ اسْمُكَ، وَتَعَالَى جَدُّكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»، ثُمَّ يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ثَلَاثًا، ثُمَّ يَقُولُ: «اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا» ثَلَاثًا، «أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمَزِهِ، وَنَفْخِهِ، وَنَفْثِهِ».

أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢)، والنسائي (٨٩٩)، وأحمد (١١٤٧٣).

وهو حديث ضعيف، ضعفه أحمد وأبو داود والترمذي وابن خزيمة، وتقدم.

الثاني: من حديث معقل بن يسار، عن النبي ﷺ، قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَقَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ وَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى يُمِسيَ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيدًا، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُمِسيَ كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ».

=

أخرجه الترمذي (٢٩٢٢)، وأحمد (٢٠٣٠٦)، والدارمي (٣٤٦٨).
 قال الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». انتهى.
 قال الذهبي: «وثق، وضعفه ابن معين، وقال: خلط قبل موته بعشر سنين، وكان قبل ذلك ثقة، وكان في تخليطه كلما جاءوه به قرأه. وقال أبو حاتم: من عتق الشيعة، محله الصدق».

وذكر الذهبي حديثه هذا، وقال: «لم يحسنه الترمذي، وهو حديث غريب جدا، ونافع ثقة». انظر: ميزان الاعتدال (١ / ٦٣٢).
 وقال المباركفوري: «وفي سندهما خالد بن طهمان وكان قد خلط قبل موته بعشر سنين». انظر: تحفة الأحوذى (٨ / ١٩٣).

معنى كلمة: سورة:

وأصل معنى «السورة» لغة: المنزلة من منازل الارتفاع، ومن ذلك سور المدينة للحائط الذي يحويها، وذلك لارتفاعه على ما يحويه، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

ألم تر أن الله أعطاك سورةً ترى كل ملك دونها يتذبذب
أي منزلة من منازل الشرف التي قصرت عنها منازل الملوك^(١).

معنى كلمة: آية:

وقيل: سميت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها. واختلف النحويون في أصل آية، فقال سيبويه: آية على فعلة مثل أكمة وشجرة، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها انقلبت ألفاً فصارت آيةً بهمزة بعدها مدة، وقال الكسائي: أصلها آية على وزن فاعلة مثل آمنة فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت لالتباسها بالجمع، وقال الفراء: أصلها آية بتشديد الياء الأولى فقلبت ألفاً كراهة التشديد فصارت آية وجمعها آي وآيات وآياء. وأنشد أبو زيد:

لم يبق الدهر من آيائه غير أثافيه^(٢) وأرمدائه^(٣)^(٤).

(١) انظر: محاسن التأويل (١ / ٢٢٤).

(٢) الأثنية: جمع أثنية وإثنية، وهي الحجر الذي توضع عليه القدر. انظر: لسان العرب (٣ / ٩).

(٣) الأرمداء: الرماد - المصدر السابق - (٣ / ١٨٥).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١ / ٦٦).

حكم البسملة

للعلماء في حكم البسملة قولان:

القول الأول: أن البسملة ليست آية من سورة الفاتحة، وهو قول أبي حنيفة، ومالك، ومن وافقهما^(١)، ومن أظهر ما استدلوا به على قولهم: الحديث القدسي الذي رواه النبي ﷺ عن رب العزة، وفيه: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي...»^(٣).

قال العلماء: المراد بالصلاة هنا الفاتحة، ووجه الدلالة من الحديث: أنه سبحانه وتعالى قال: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدني نصفين»، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين... الحديث، فلم يذكر البسملة، ولو كانت من الفاتحة لذكرها.

ويجيب عنه بأجوبة:

أحدها: أن التنصيف عائدٌ إلى جملة الصلاة، لا إلى الفاتحة.

الثاني: أن التنصيف عائد إلى ما يختص بالفاتحة من الآيات الكاملة، والبسملة آية من الفاتحة وغيرها على هذا القول^(٣).

القول الثاني: أن البسملة آية من سورة الفاتحة، وهذا قول الشافعي،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٨)، وشرح النووي على مسلم (٤ / ١٠٤)،

ومرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح للملا علي القاري (٢ / ٦٨٤).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٣) انظر: شرح النووي على مسلم (٤ / ١٠٤)، ونيل الأوطار للشوكاني (٢ / ٢٤١).

وموافقيه^(١)، وحجتهم: قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر]، وقد فسر النبي ﷺ السبع المثاني بأم الكتاب أي الفاتحة، قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(٢)، ولا تكمل الفاتحة سبع آيات إلا إذا اعتبرت البسملة آية^(٣).

وهل البسملة آية من كل سورة؟

أجمع العلماء على أن البسملة بعض آية من سورة النمل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل]، وقد نقل الإجماع: الإمام القرطبي وغيره^(٤).

واختلفوا في سائر السور، هل هي آية من كل سورة أم لا؟، للعلماء قولان:

القول الأول: أن البسملة آية من كل سورة، أنزلت مكرر للفصل بين السور، وهو قول ابن المبارك، وقول للشافعي^(٥).

ودليلهم: ما رواه مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهَرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ أَنْفَا سُورَةٌ» فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٧٠٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٨)، ونيل الأوطار (٢ / ٢٤١)، ومروقة

المصاييح شرح مشكاة المصابيح (٤ / ١٥١٤).

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٨).

(٥) انظر: المصدر السابق.

الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر] (١).

وجه الدلالة: أن رسول الله ﷺ بدأ قراءة السورة بالبسملة.

القول الثاني: أن البسملة ليست آية من الفاتحة، ولا من غيرها من السور، وهذا قول مالك (٢).

قال ابن العربي المالكي رحمه الله: ويكفيك أنها ليست من القرآن: اختلاف الناس فيها، والقرآن لا يختلف فيه (٣).

قال القرطبي رحمه الله: والأخبار الصحاح التي لا مطعن فيها دالة على أن البسملة ليست بآية من الفاتحة، ولا غيرها، إلا في النمل وحدها (٤)، وساق حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي رواه النبي ﷺ عن رب العزة، وفيه: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي...» الحديث (٥).

ولو كانت البسملة آية لذكرها الله تعالى في هذا الحديث القدسي، وتقدم الرد على هذا القول.

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٤٠٠).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٨ - ١٠٩).

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٠٨ - ١٠٩).

(٥) صحيح، تقدم تخريجه.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣﴾ مَلِكِ

يَوْمَ الدِّينِ ٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ٦﴾

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ٧﴾

فضائل سورة الفاتحة

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتمّ اشتمال وتضمنتها أكمل تضمن.

فاشتملت على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنی والصفات العليا إليها، ومدارها عليها، وهي: «الله، والرب، والرحمن»، وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة، ف: إِيَّاكَ نَعْبُدُ مبنی على الإلهية، وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ على الربوبية، وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة: فهو المحمود في إلهيته، وربوبيته، ورحمته، والثناء والمجد كما لان لجلده.

وتضمنت إثبات المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم حسننها وسيئها، وتفرد الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق، وكون حكمه بالعدل، وكل هذا تحت قوله: مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

أحدها: كونه رب العالمين، فلا يليق به أن يترك عباده سدًى هملاً، لا يعرفهم ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما، فهذا هضم للربوبية، ونسبة الرب تعالى إلى ما لا يليق به، وما قدره حق قدره من نسبه إليه.

الثاني: أخذها من اسم «الله» وهو المألوه المعبود، ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله.

الموضع الثالث: من اسمه «الرحمن» فإن رحمته تمنع إهمال عباده،

وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كما لهم، فمن أعطى اسم «الرحمن» حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، أعظم من تضمنه علم إنزال الغيث وإنبات الكلاً، وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضاءها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب، وأدرك منه أولو الألباب أمرا وراء ذلك.

الموضع الرابع: من ذكر «يوم الدين» فإنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيشبههم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه، وبهم استحق الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسبق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم.

الموضع الخامس: من قوله إِيَّاكَ نَعْبُدُ فَإِنْ مَا يَعْبُدُ بِهِ تَعَالَى لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى مَا يَجِبُهُ وَيَرْضَاهُ، وعبادته: هي شكره وحبه وخشيته، فطري ومعقول للعقول السليمة، لكن طريق التعبد وما يعبد به لا سبيل إلى معرفته إلا برسله، وفي هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر في العقول، يستحيل تعطيل العالم عنه، كما يستحيل تعطيله عن الصانع، فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسل، ولم يؤمن به، ولهذا جعل سبحانه الكفر برسله كفراً به^(١).

من أسماء وفضائل فاتحة الكتاب:

١ - الفاتحة أو فاتحة الكتاب:

(١) انظر: التفسير القيم لابن القيم (١/ ١١ - ١٣).

وسميت بذلك لأنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة، وقيل: إنما سميت بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته^(١).

فُتِحَ لنزول الفاتحة باب من السماء لم يُفْتَح قط، ونزل من السماء ملك يخبر النبي ﷺ بفضلها.

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: «بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبَشِّرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتهُ»^(٢).

ومن المعلوم أن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن كله، وهذا الملك لم ينزل بسورة الفاتحة، إنما بفضل وثواب سورة الفاتحة^(٣)، قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء].

لا تصح الصلاة إلا بها:

قال رسول الله ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»^(٤).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٠٢).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٨٠٦).

(٣) نقل هذا المعنى القرطبي عن ابن عطية وأقره عليه - انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٣٣) ط. دار الحديث.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٧٥٦)، ومسلم (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»^(١).

خداج: ناقصة غير تامة، والصلاة الناقصة لا تسمى صلاة حقيقة^(٢).
 وذهب جمهور العلماء من المالكية، والشافعية، والحنابلة، وداود الظاهري، وغيرهم^(٣)، إلى أن قراءة الفاتحة للإمام والمنفرد: ركن من أركان الصلاة، وحجتهم: الأحاديث التي ذكرناها.

٢، ٣- أم الكتاب والرقية:

من فضائل فاتحة الكتاب أنها رقية شافية بإذن الله، ومن أسماؤها: أم الكتاب.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا فِي مَسِيرٍ لَنَا فَنَزَلْنَا، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ، فَقَالَتْ: إِنَّ سَيِّدَ الْحَيِّ سَلِيمٌ، وَإِنَّ نَفَرَنَا غَيَّبٌ، فَهَلْ مِنْكُمْ رَاقٍ؟ فَقَامَ مَعَهَا رَجُلٌ مَا كُنَّا نَأْبَهُ بِرُقِيَّةٍ، فَرَقَاهُ فَبَرَأَ، فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ شَاةً، وَسَقَانَا لَبَنًا، فَلَمَّا رَجَعَ قُلْنَا لَهُ: أَكُنْتَ تُحْسِنُ رُقِيَّةً - أَوْ كُنْتَ تَرْقِي؟ - قَالَ: لَا، مَا رَقِيتُ إِلَّا بِأَمِّ الْكِتَابِ، قُلْنَا: لَا تُحَدِّثُوا شَيْئًا حَتَّى نَأْتِيَ - أَوْ نَسْأَلَ - النَّبِيَّ ﷺ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ ذَكَرْنَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «وَمَا كَانَ يُذَرِّيه أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟ اقْسِمُوا

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٢) انظر: نيل الأوطار (٢/ ٢٤٣).

(٣) انظر على الترتيب: مواهب الجليل للحطاب (٢/ ٢١١-٢١٢)، والمجموع شرح

المذهب للنووي (٣/ ٣٢٧)، وشرح منتهى الإرادات للبهوتي (١/ ٢١٦)، والمحلى

لابن حزم (٢/ ٢٦٥-٢٦٦).

وَاضْرِبُوا لِي سِتْرَهُمْ»^(١).

قال البخاري رحمه الله: وسميت أم الكتاب أنه يبدأ بكتابتها في المصاحف، ويبدأ بقراءتها في الصلاة^(٢).

ولا يمنع تسميتها بأَم الكتاب مع تسمية اللوح المحفوظ بأَم الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣) [الرعد]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾^(٤) [الزخرف].

قال ابن رجب رحمه الله: هذا لا يدل على منع تسمية الفاتحة بذلك^(٥)، للحديث المتقدم.

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: والعرب تسمي كل جامع أمراً - أو مقدماً - لأمر إذا كانت له توابع تتبعه، هو لها إمام جامع - "أمماً"^(٦).

٤، ٥ - أم القرآن، والسبع المثاني:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(٧) [الحجر]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»^(٨).

وعن أبي سعيد بن المعلی رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنْتُ أَصَلِّي، فَدَعَانِي النَّبِيُّ ﷺ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١).

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - (٤ / ١٦٢٢).

(٣) انظر: تفسير الفاتحة لابن رجب (ص: ٢٣).

(٤) جامع البيان (١ / ١٠٧).

(٥) صحيح، تقدم تخريجه.

فَلَمْ أَجِبْهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، قَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: اسْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ؟»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ»، فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ قُلْتَ: «لَأُعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ» قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ»^(١).

سميت السبع المثاني لأنها سبع آيات تشني، يعني تتكرر قراءتها في كل ركعة وفي كل صلاة، وسماها القرآن العظيم لاشتغالها -مع وجازتها وقلة ألفاظها- على أهم مقاصد القرآن الكريم، مع إثبات التوحيد، والنبوة، والمعاد، والعبادة المتضمنة لأركان الإسلام^(٢).

٦- الصلاة:

من أسماء الفاتحة: الصلاة، لما روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّنِي عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٣)، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِلَهِ الْعَالَمِينَ﴾^(٤)، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٥) صِرَاطَ الَّذِينَ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٥٠٠٦).

(٢) انظر: بدائع الفوائد لابن القيم (٢/ ٤٤٣)، بتصرف، وتفسير ابن كثير (١/ ١٠٢ -

١٠٥)، ومحاسن التأويل للقاسمي (١/ ٢٢٣).

أَشْمَتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»^{(١)(٢)}.

يجوز تفضيل بعض سور القرآن على بعض:

هذا مذهب أكثر أهل العلم للأحاديث الصحيحة الصريحة التي جاء بها تفضيل بعض السور على بعضها، منها: حديث أبي سعيد بن المولى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي أخرجه البخاري، وقد تقدم، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ أُخْرَجَ»^(٣).

والتفضيل باعتبار ما تَضَمَّنَتْهُ من المعاني، فما تَضَمَّنَ التوحيد والتنزيه أعظم مما تَضَمَّنَ الإخبار عن الأمم أو ذكر أبي لهب ونحو ذلك^(٤).

نزول فاتحة الكتاب:

نزلت فاتحة الكتاب بمكة عند جمهور العلماء، وأنها سبع آيات^(٥)، لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر].

قال ابن رجب رحمه الله: والصحيح أنها أنزلت بمكة، فإن «سورة

(١) صحيح، تقدم تخريجه.

(٢) قال القرطبي في تفسيره (١ / ١١١): الرَّابِعَةُ: فِي أَسْمَائِهَا، وَهِيَ اثْنَا عَشَرَ اسْمًا: الْأَوَّلُ: الصَّلَاةُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ... الْحَدِيث.

(٣) صحيح، تقدم تخريجه آنفاً.

(٤) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب (ص: ٣٨)، وتفسير القرطبي (١ / ١١٠).

(٥) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب (ص: ١٦ - ١٨)، وتفسير ابن كثير (١ /

١٠١)، ومحاسن التأويل (١ / ٢٢٤).

الحجر» مَكِّيَّةً بالاتفاق، وقد أنزل الله فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقد فسرها النبي ﷺ بالفاتحة، فعلم أنَّ نزولها متقدِّمٌ على نزول «الحجر»، وأيضًا فإنَّ الصَّلَاةَ فُرِضَتْ بِمَكَّةَ، ولم يُنْقَلْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وأصحابه صَلَّوْا صَلَاةً بغير فاتحة الكتاب أصلاً، فدلَّ على أنَّ نزولها كان بِمَكَّةَ، وأمَّا الرَّوَايَةُ بِأَنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ فالأحاديث الصَّحِيحَةُ تَرُدُّهُ^(١).

(١) انظر: تفسير سورة الفاتحة لابن رجب (ص: ٣٨)، وتفسير القرطبي (١/ ١١٠).

تفسير سورة الفاتحة

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾:

للعلماء في معنى البسملة أقوال، أصحها: ثلاثة أقوال:

القول الأول: «بِسْمِ اللَّهِ» أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ ﴿أَسْمَ﴾ مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى. «اللَّهُ»: هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات كمال.

«الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حيٍّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهو لاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها. واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها: الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات.

فيؤمنون مثلاً بأنه رحمنٌ رحيمٌ، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في العليم: إنه عليمٌ ذو علم، يعلم به كل شيء، قدير، ذو قدرة يقدر على كل شيء^(١).

القول الثاني: «إن الله تعالى ذكره وتقدّست أسماؤه أدبَ نبيه محمداً ﷺ بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وتقدّم إليه في وصفه بها قبل جميع مُهمّاته، وجعل ما أدّبه به من ذلك وعلمه إياه، منه لجميع خلقه

(١) تفسير السعدي (ص: ٣٩).

سُنَّةٌ يَسْتَنُونَ بِهَا، وَسَبِيلًا يَتَّبِعُونَهُ عَلَيْهَا، فِيهِ افْتِتَاحٌ أَوَائِلُ مَنْطِقِهِمْ، وَصُدُورُ رَسَائِلِهِمْ وَكُتُبِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ، حَتَّى أَغْنَتْ دَلَالَةُ مَا ظَهَرَ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: «بِسْمِ اللَّهِ»، عَلَى مَنْ بَطَنَ مِنْ مَرَادِهِ الَّذِي هُوَ مَحْذُوفٌ»^(١).

«فَمَعْقُولٌ إِذَا أَنْ قَوْلُ الْقَائِلِ إِذَا قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ثُمَّ افْتِتَحَ تَالِيًا سُورَةً، أَنْ إِتْبَاعَهُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» تِلَاوَةُ السُّورَةِ، يُنبِئُ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» وَمَفْهُومٌ بِهِ أَنَّهُ مَرِيدٌ بِذَلِكَ: أَقْرَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «بِسْمِ اللَّهِ» عِنْدَ نَهْوِضِهِ لِلْقِيَامِ أَوْ عِنْدَ قَعُودِهِ وَسَائِرِ أَفْعَالِهِ، يُنبِئُ عَنْ مَعْنَى مَرَادِهِ بِقَوْلِهِ «بِسْمِ اللَّهِ»، وَأَنَّهُ أَرَادَ بِقِيلِهِ «بِسْمِ اللَّهِ»، أَقُومُ بِاسْمِ اللَّهِ، وَأَقْعُدُ بِاسْمِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَفْعَالِ»^(٢).

القول الثالث: قال العلماء: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»: قَسَمٌ مِنْ رَبِّنَا أَنْزَلَهُ عِنْدَ رَأْسِ كُلِّ سُورَةٍ، يَقْسِمُ لِعِبَادِهِ إِنْ هَذَا الَّذِي وَضَعْتَ لَكُمْ يَا عِبَادِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ حَقٌّ، وَإِنِّي أَوفِي لَكُمْ بِجَمِيعِ مَا ضَمَنْتَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ وَعْدِي وَلُطْفِي وَبَرِي»^(٣).

وَلَا مَانِعَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْآيَةِ يَشْمَلُ الثَّلَاثَةَ أَقْوَالًا، إِذْ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّ الْآيَةَ لَوْ تَحْتَمِلُ مَعَانِي كُلِّهَا صَحِيحَةً تَعِينُ حَمْلَهَا عَلَى الْجَمِيعِ»^(٤).

(١) جامع البيان (١/ ١١٤).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ٩١).

(٤) راجع إن شئت - التمهيد، باب: اختلاف التنوع.

استحباب ذكر البسملة في جملة من المواطن:

جاءت جملة من الأحاديث الصحيحة في السنة المطهرة تدل على استحباب البسملة في جملة من المواطن.

١ - التسمية عند الوضوء:

التسمية عند الوضوء جاء فيها أحاديث، إلا أن أسانيدها لا تخلو من مقال^(١).

قال المنذري: ولا شك أن الأحاديث التي وردت فيها - وإن كان لا يسلم شيء منها عن مقال - فإنها تتعاضد بكثرة طرقها وتكتسب قوة^(٢).
فالتسمية سنة عند جمهور الفقهاء؛ الحنفية، والمالكية، والشافعية،

(١) منها: حديث رباح بن عبد الرحمن بن أبي سفيان بن حويطب، عن جدته، عن أبيها، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لَا وُضُوءَ لِمَنْ لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ»، أخرجه الترمذي (٢٥)، وابن ماجه (٣٩٨)، وأحمد (١٦٦٥١).

وهذا الحديث ضعفه أبو حاتم، وأبو زرعة. انظر: العلل لابن أبي حاتم (١ / ٥٩٤). وقال أحمد: لا أعلم في هذا الباب حديثاً له إسناد جيد. وقال مرة: لا يثبت عندي، إسناده ضعيف. وقال مرة: لا أعلم في هذا الباب حديثاً يثبت، أقوى شيء فيه حديث كثير بن زيد عن ربيع وربيح ليس بمعروف. وقال مرة: ليس في هذا حديث يثبت، وأحسنها حديث كثير بن زيد، وضعف حديث ابن حرملة وقال: أنا لا أمره بالإعادة، وأرجو أن يجزئه الوضوء، لأنه ليس في هذا حديث أحكم به. انظر: الجامع لعلوم الإمام أحمد - علل الحديث (١٤ / ١١٠).

وقال البزار: كل ما روي في هذا الباب فليس بقوي. انظر: تحفة الأحوذى (١ / ٣٧).
(٢) تحفة الأحوذى للمباركفوري (١ / ٩٥)، وانظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي (١ / ١٢٢).

وهو الظاهر من مذهب أحمد^(١).

٢ - التسمية عند دخول البيت:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَذْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»^(٢).

٣ - التسمية عند ابتداء الطعام:

ورد في هذا الصدد عدة أحاديث تدل على استحباب التسمية قبل ابتداء الطعام، منها:

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ...»^(٣).
وقال رسول الله ﷺ لعمر بن أبي سلمة: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»^(٤).

ومما يدل على استحباب التسمية عند ابتداء الطعام:

حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ، قال: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ

(١) انظر على الترتيب: بدائع الصنائع للكاساني (١ / ٣١)، ومواهب الجليل للحطاب (١ / ٣٨٣)، وروضة الطالبين للنووي (١ / ١٦٧)، والمغني لابن قدامة (١ / ٩٥).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٠١٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (٢٠١٧).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢).

فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلُهُ وَآخِرُهُ»^(١).

٤ - التسمية عند الذبح:

التسمية على الذبح مستحبة، والدليل:

١ - قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالطَّيْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَیْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة].

فأباح بالتذكية من غير اشتراط التسمية، ولا وجوبها، لأن التذكية هي في اللغة الشق والفتح^(٢).

٢ - نقل الشنقيطي الإجماع على أن ذبائح أهل الكتاب داخلة في قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥]^(٣)، وأهل الكتاب لا يسمون، فدل على أن الأمر بالتسمية للاستحباب^(٤).

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٧٦٧)، والترمذي (١٨٥٨)، وابن ماجه (٣٢٦٤)،

وأحمد (٢٥١٤٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٧٦٧).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٧ / ٨٦).

(٣) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص: ٧٠).

(٤) وهذا مذهب الشافعي، ورواية عن أحمد - انظر: المجموع شرح المذهب (٨ / ٣٨٤)،

والمغني لابن قدامة (٨ / ٣٨٩).

٣- وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ قَوْمًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَوْمًا يَأْتُونَنَا بِاللَّحْمِ لَا نَدْرِي أَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَمْ لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَمُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وَكُلُّوهُ»^(١).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]: فالمراد ما ذُبح للأصنام، وما أهل به لغير الله، كمن ذبح باسم المسيح ونحوه، وقد أجمع المسلمون على من أكل متروك التسمية ليس بفاسق، قاله النووي^(٢).

وهذا هو الصواب، بإذن الله للجمع بين الأدلة كما تقدم.

٥ - التسمية على القوس الذي يرمى به الصيد:

يحلُّ الأكل من الصيد الذي صيد بالكلب المعلم إذا ذكر اسمُ الله على القوس قبل أن يرمى به الصيد.

عن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا بِأَرْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَتَأْكُلُ فِي آيَتِهِمْ، وَبِأَرْضِ صَيِّدٍ، أَصِيدُ بِقَوْسِي، وَأَصِيدُ بِكَلْبِي الْمُعَلَّمِ وَبِكَلْبِي الَّذِي لَيْسَ بِمُعَلَّمٍ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ بِأَرْضِ أَهْلِ كِتَابٍ: فَلَا تَأْكُلُوا فِي آيَتِهِمْ إِلَّا أَنْ لَا تَجِدُوا بُدًّا، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا بُدًّا فَاغْسِلُوهَا وَكُلُّوا، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكُمْ بِأَرْضِ صَيِّدٍ: فَمَا صِدَّتْ بِقَوْسِكَ فَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ وَكُلْ، وَمَا صِدَّتْ بِكَلْبِكَ الْمُعَلَّمِ فَادْكُرِ اسْمَ اللَّهِ

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٢٠٥٧).

(٢) انظر: شرح النووي على مسلم (٧ / ٨٧).

وَكُلُّ، وَمَا صَدَّتْ بِكَائِبِكَ الَّذِي لَيْسَ بِمُعَلِّمٍ فَأَذْرَكَ ذَكَاتَهُ فَكُلُّهُ»^(١).

٦ - التسمية في أذكار الصباح والمساء:

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ صَبَاحَ كُلِّ يَوْمٍ وَمَسَاءَ كُلِّ لَيْلَةٍ ثَلَاثًا ثَلَاثًا: بِسْمِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ»^(٢).

٧ - وتشرع التسمية عند إغلاق الأبواب وتغطية الأنية:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَانَ جُنْحُ اللَّيْلِ، أَوْ أَمْسَيْتُمْ، فَكُفُّوا صَبِيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ فَحُلُّوهُمْ، فَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ بَابًا مُغْلَقًا، وَأَوْكُوا قِرْبَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرُوا أَيْتَكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ أَنْ تَعْرُضُوا عَلَيْهَا شَيْئًا، وَأَطْفُوا مَصَابِيحَكُمْ»^(٣).

٨ - التسمية عند الجماع:

قال رسول الله ﷺ: «أَمَّا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يَقُولُ حِينَ يَأْتِي أَهْلَهُ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبِي الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، ثُمَّ قَدَّرَ بَيْنَهُمَا فِي ذَلِكَ، أَوْ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٤٩٦)، ومسلم (١٩٣٠).

(٢) صحيح الأدب المفرد للبخاري (٥١٣)، وحسن إسناده شعيب الأرناؤوط في تخريج مشكل الآثار (٣٠٧٦)، وتخريج المسند (٥٢٨)، وبنحوه عند الترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٩)، من حديث عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥٦٢٣)، ومسلم (٢٠١٢) من حديث جابر بن عبد

قُضِيَ وَلَدٌ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»^(١).

٩ - التسمية عند وضع الميت في القبر:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا وَضَعْتُمْ مَوْتَاكُمْ فِي الْقُبُورِ فَقُولُوا: بِسْمِ اللَّهِ وَعَلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٢).

١٠ - استحباب التسمية عند كتابة الرسائل ونحوه:

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل].
وفي يوم الحديبية، قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
«اَكْتُبْ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»^(٣).
وأرسل رسول الله ﷺ رسالة إلى هرقل، قال فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى...»^(٤).

١١ - التسمية عند تعثر الدابة:

عن أبي المليح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ، أنه قال: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَثَرَتْ دَابَّتُهُ، فَقُلْتُ: تَعَسَ الشَّيْطَانُ، فَقَالَ: «لَا تَقُلْ تَعَسَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (٥١٦٥)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٦١١١)، واللفظ له، وأبو داود (٣٢١٣)، والترمذي (١٠٤٦)، وابن ماجه (١٥٥٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٣٢١٣).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (١٧٨٤) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٢٦٠)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الشَّيْطَانُ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَعَاظَمَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الْبَيْتِ، وَيَقُولُ: بِقُوَّتِي، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ ذَلِكَ تَصَاغَرَ حَتَّى يَكُونَ مِثْلَ الذُّبَابِ»^(١).

١٢ - التسمية عند النوم:

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَذَرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتَ جَنِّي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»^(٢).

١٣ - التسمية عند الرقية:

قال رسول الله ﷺ لعثمان بن أبي العاص الثقفي لما شكى وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللَّهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»^(٣).

وعن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كَانَ إِذَا اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَقَاهُ جَبْرِيلُ، قَالَ: «بِاسْمِ اللَّهِ يُبْرِيكَ، وَمِنْ كُلِّ دَاءٍ يَشْفِيكَ، وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٨٢)، والنسائي في الكبرى (١٠٣١٢)، وأحمد

(٢٠٥٩١) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٩٨٢).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، واللفظ له، ومسلم (٢٧١٤) من حديث أبي

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٠٢).

إِذَا حَسَدَ، وَشَرَّ كُلِّ ذِي عَيْنٍ»^(١).

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى، كما جاء في الحديث: أن أعرابياً قال للنبي ﷺ: علمني دعاء، لعل الله أن ينفعني به، قال: «قُلْ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ»^{(٢)(٣)}.

والحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله، ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له، وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها، ولهذا كان الحمد كله لله^(٤).

الفرق بين الحمد والشكر:

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢١٨٥).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيثار (٤٠٨٧)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيه أبو بلج، وهو مختلف فيه. انظر: تهذيب التهذيب (١٢ / ٤٧).

وأخرجه كذلك (٤٠٨٨) من حديث أبي سعيد الخدري، أن رجلاً، قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أي الدعاء خيراً أَدْعُو به في صلاتي؟، قال: نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنَّ خَيْرَ الدُّعَاءِ أَنْ تَقُولَ فِي الصَّلَاةِ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْمُلْكُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْخَلْقُ كُلُّهُ، وَإِلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ، أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، وفيه: خالد بن يزيد العمري، وهو ضعيف. انظر: ميزان الاعتدال (١ / ٦٤٦).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ٤١).

(٤) انظر: بدائع الفوائد (١ / ٤٢).

الحمد: ثناء على الله تعالى بأسمائه الحسنی وصفاته العلی، وهو أعمُّ من الشُّكر من حيث المتعلق، لأنَّ الحمد يكون على الفواضل^(١)، والفضائل^(٢)، فيحمد ربَّه على الإحسان والمحاسن، وأيضًا الحمد يكون مقابل نعمة وبدونها، خلاف الشُّكر لا يكون إلا مقابل نعمة.

والشكر: أخصُّ من الحمد من حيث المتعلق، لكونه على الفواضل فقط، فيكون على الإحسان، وهو أعمُّ من الحمد من حيث المورد، لأنَّ العبد يشكر ربَّه على ما أسدى له من نعم ظاهرة وباطنة تنزل عليه تترًا، يعجز عن عدّها فضلًا عن حصرها، والشُّكر أعمُّ من جهة المورد، لأنَّ مورده: اللسان، والجنان، والأركان^(٣).

الخلاصة: الحمد يكون مقابل نعمة، وقد يكون بدونها، فالعبد يحمد ربَّه على كلّ حال، أما الشُّكر لا يكون إلا مقابل نعمة.

ويرى بعض أهل العلم أن الحمد والشُّكر شيء واحد.

من هؤلاء العلماء ابنُ جرير الطبريُّ رحمه الله - وقد اعترض على هذا القول ابنُ كثير رحمه الله - وغيره من العلماء.

قال ابن كثير رحمه الله: وهذا الذي ادَّعاه ابنُ جرير فيه نظر؛ لأنَّه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين: أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشُّكر لا يكون إلا على المتعدية،

(١) الفواضل: هي الصفات المتعدية كالكرم - مجموع الفتاوى لابن تيمية (١١ / ١٣٣ - ١٣٤)، وانظر: الكليات للكفوي (ص: ٥٧٦).

(٢) الفضائل: الصفات اللازمة غير المتعدية، كالجمال - المصدر السابق.

(٣) انظر: جامع شروح السفارينية لجمع من العلماء (ص: ٥٠)، بتصرف يسير..

ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا^(١).

«أثنى الله سبحانه بالحمد على نفسه، وافتتح كتابه بحمده، ولم يأذن في ذلك لغيره، بل نهاهم عن ذلك في كتابه، وعلى لسان نبيه عليه السلام فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم]، وقال عليه السلام: «احْثُوا فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ»، رواه المقداد، وسيأتي القول فيه في «النساء» إن شاء الله تعالى.

فمعنى: «الحمد لله رب العالمين» أي: سبق الحمد مني لنفسي أن يحمدي أحد من العالمين، وحمدي نفسي لنفسي في الأزل لم يكن بعله، وحمدي الخلق مشوب بالعلل^(٢).

فضل الحمد:

عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(٣).

وعن رفاعه بن رافع الزرقني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ: «مَنْ الْمُتَكَلِّمُ»

(١) تفسير ابن كثير (٤٢/١).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/١٣٥).

(٣) صحيح: أخرجه مسلم (٢٢٣).

قَالَ: أَنَا، قَالَ: «رَأَيْتُ بَضْعَةً وَثَلَاثِينَ مَلَكًا يَتَدَرُّونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ»^(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»^(٢).

دلَّت الأحاديثُ على فضل الحمد، وأنه من أجل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى ربه جلَّ في علاه، فإذا امتلأ قلبه بالحمد ونطق اللسان بالثناء على الله، كان ذلك سبباً لنيل الثواب العظيم والأجر الجزيل، والفوز برضا الله ومحبته.

قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

الرب مشتق من التربية فالله سبحانه مدبر خلقه، ومربيهم، ومصلحهم، وجابرهم، والقائم بأمورهم، قيوم الدنيا والآخرة، كل شيء خلقه، وكل مذكور سواه عبده وهو ربه، لا يصلح إلا بتدبيره، ولا يقوم إلا بأمره، ولا يربه سواه^(٣).

وتربية الرب للعباد قد تكون بالعطاء الذي يستوجب الشكر، وقد تكون بالمنع الذي يستوجب الصبر، فالؤمن يتقلب بين الشكر والصبر، كما جاء في الحديث^(٤).

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٧٩٩).

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣٤).

(٣) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي (١ / ٣٩٥)، والمفردات للراغب الأصفهاني (ص: ٢٠٤).

(٤) عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ،

فالعليم الخبير الحكيم يعلم ما يصلح العباد وما لا يصلحهم، والمؤمن الفطن يثق في الله وإن لم تظهر له.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

لم يبين هنا ما العالمون، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿[الشعراء].

قال بعض العلماء: اشتقاق العالم من العلامة، لأن وجود العالم علامة لا شك فيها على وجود خالقه، متصفاً بصفات الكمال والجلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩) [آل عمران]، والآية في اللغة: العلامة^(١).

وتربيته تعالى لخلقه نوعان؛ عامة، وخاصة:

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة.

=

وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، أخرجه مسلم (٢٩٩٩).

(١) انظر: أضواء البيان (١ / ٥).

فدل قوله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمايم فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار^(١).

وبالجملة فإن قوله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، يحمل معاني جليلة أكثر مما تحصى.

«تجد تحت هذه الكلمة إثبات كل كمال للرب تعالى فعلاً ووصفاً واسماً، وتنزيهه عن كل سوء وعيب فعلاً ووصفاً واسماً، فهو محمودٌ في أفعاله وأوصافه وأسمائه، منزّه عن العيوب والنقائص في أفعاله وأوصافه وأسمائه، فأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل لا تخرج عن ذلك، وأوصافه كلها أوصاف كمال ونعوت جلال، وأسمائه كلها حسنى، وحمده قد ملأ الدنيا والآخرة والسموات والأرض وما بينهما وما فيهما، فالكون كله ناطق بحمده، والخلق والأمر صادرٌ عن حمده وقائمٌ بحمده ووُجد بحمده، فحمده هو سبب وجود كل موجود، وهو غاية كل موجود، وكل موجود شاهد بحمده، وإرساله رسوله بحمده، وإنزاله كتبه بحمده، والجنة عُمرت بأهلها بحمده، والنار عُمرت بأهلها بحمده، وما أُطيع إلا بحمده، وما عُصي إلا بحمده، ولا تسقط ورقة إلا بحمده، ولا يتحرك في الكون ذرة إلا بحمده.

وهو المحمود لذاته، وإن لم يحمده العباد، كما أنه هو الواحد الأحد ولو لم يوحد العباد، والإله الحق وإن لم يؤهّوه، وهو سبحانه الذي حمد نفسه على لسان القائل: الحمد لله رب العالمين، كما قال النبي ﷺ: إن الله

(١) انظر: تفسير السعدي (ص: ٣٩).

تعالى قال على لسان نبيه: سمع الله لمن حمده، فهو الحامد لنفسه في الحقيقة على لسان عبده، فإنه الذي أجرى الحمد على لسانه وقلبه، وإجراؤه بحمده، فله الحمد كله، وله الملك كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، فهذه المعرفة من عبودية الحمد.

ومن عبوديته أيضًا أن يعلم أن حمده لربه سبحانه نعمةً منه عليه، يستحق عليها الحمد، فإذا حمده على هذه النعمة استوجب عليه حمدًا آخر على نعمة حمده، وهلمَّ جراً.

فالعبد ولو استنفد أنفاسه كلها في حمده على نعمة من نعمه، كان ما يجب له من الحمد ويستحقه فوق ذلك وأضعافه، ولا يُحصى أحد البتة ثناءً عليه بمحامده.

ومن عبودية العبد شهودُ العبد لعجزه عن الحمد، وأن ما قام به منه فالرب سبحانه هو المحمود عليه، إذ هو مجريه على لسانه وقلبه. ومن عبوديته تسليط الحمد على تفاصيل أحوال العبد كلها ظاهرةً وباطنةً على ما يجب العبد وما يكرهه، فهو سبحانه المحمود على ذلك كله في الحقيقة، وإن غاب عن شهود العبد.

ثم لقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من العبودية شهود تفرد سبحانه بالربوبية، وأنه كما أنه رب العالمين وخالقهم ورازقهم ومُدبّر أمورهم ومُوجدهم ومُفنيهم، فهو وحده إلههم ومعبودهم وملجأهم ومفرعهم عند النوائب، فلا ربَّ غيره، ولا إله سواه^(١).

(١) انظر: ذوق الصلاة عند ابن القيم (ص: ٢٣ - ٢٥).

قوله: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾:

هما وصفان لله، واسمان من أسمائه الحسنی، مشتقان من الرحمة، مثل ندمان ونديم، وهما من أبنية المبالغة، ورحمان أبلغ من رحيم، والرحمن خاص لله لا يُسمَّى به غيره، ولا يوصف. والرحيم يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال رحمن^(١).

ومعنى الرحمن: أنه ذو رحمة لا نظير له فيها، ولذلك لا يثنى ولا يجمع، كما يثنى الرحيم ويجمع^(٢).

والمعتمد في الباب: الإجماع من العلماء أنه لا يجوز أن يوصف بهذا الوصف: (الرحمن)، ولا يتسمى بهذا الاسم إلا الله عز وجل، وقد تجاسر مسيلمة الكذاب فتسمى برحمان اليمامة، فذل وكفر، قاله ابن الحصار^(٣).

يجوز للعبد أن يوصف بأنه رحيم، ويجوز التسمي بهذا الاسم:

فقد وصف الله عز وجل نبيه ﷺ بأنه رحيم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة].

فدلت الآية على الجواز مع اليقين الجازم أن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى]، لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فالاشتراك في الاسم لا يقتضي التماثل بين الخالق سبحانه،

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (ص: ٣٥٢) مادة: رحم، وجمهرة اللغة لابن

دريد (١/ ٥٢٣)، ومختار الصحاح (ص: ١٠٥).

(٢) انظر: الأسماء والصفات للبيهقي (ص: ٩).

(٣) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنی للقرطبي (١/ ٦٣) بتصرف يسير.

والمخلوق.

وقيل: الرحمة: صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها، فهذه هي الرحمة الحقيقية، فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك، ودفع المضار عنك^(١).

قال ابن القيم رحمه الله- في سياق رده على قول ابن السهلي: وفائدة الجمع بين الصفتين الرحمن والرحيم: الإنباء عن رحمة عاجلة وآجلة وخاصة وعامة-: وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دالٌّ على الصفة القائمة به سبحانه والرحيم، دالٌّ على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دالٌّ أن الرحمة صفته، والثاني دالٌّ على أنه يرحم خلقه برحمته وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾، ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾، ولم يجيء قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها^(٢).

الحكمة من ذكر أسماء الله: «الله، الرب، الرحمن، الرحيم» بعد الحمد:

في ذكر هذه الأسماء بعد الحمد، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها: ما يدل على أنه محمود في إلهيته، محمود في ربوبيته، محمود في رحمانيته، محمود في ملكه، وأنه إله محمود، ربٌّ محمود، ورحمان محمود،

(١) انظر: إغاثة اللفهان (٢/ ٩٠١).

(٢) انظر: بدائع الفوائد (١/ ٢٣ - ٢٤).

وملك محمود، فله بذلك جميع أقسام الكمال: كمال من هذا الاسم بمفرده، وكمال من الآخر بمفرده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٦)، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٦)، ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧)، فالغنى صفة كمال، والحمد صفة كمال، واقتران غناه بحمده كمال أيضا، وعلمه كمال، وحكمته كمال، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضا، وقدرته كمال، ومغفرته كمال، واقتران القدرة بالمغفرة كمال، وكذلك العفو بعد القدرة: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا قَدِيرًا﴾ (١٤٩) [النساء]، واقتران العلم بالحلم ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (١٢) [النساء].

وحملة العرش أربعة: اثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك»، واثنان يقولان: «سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»^(١)، فما كل من قدر عفا، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة، ولا كل من علم يكون حلِيمًا، ولا كل حلِيم عالم: فما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة، ومن ملك إلى حمد، ومن عزة إلى رحمة: ﴿رَبِّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء]، ومن هاهنا كان قول المسيح عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أحسن من أن يقول: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، أي إن غفرت لهم كان مصدر

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣/ ٣٤٢)، والطبري (١٩/ ٢٦١)، كلاهما في التفسير، عن

شهر بن حوشب من قوله.

مغفرتك عن عزة، وهي كمال القدرة، وعن حكمة، وهي كمال العلم، فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجاني لا يكون قادراً حكيماً عليماً، فلا يكون ذلك إلا عجزاً، فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة، وعلم تام، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها، فهذا أحسن من ذكر الغفور الرحيم في هذا الموضع، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة في غير حينها وقد فاتت، فإنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، كان في هذا من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها ما نزه عنه منصب المسيح عليه السلام، لا سيما والموقف موقف عظمة وجلال، وموقف انتقام ممن جعل لله ولداً، أو اتخذ إلهاً من دونه، فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة.

وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۚ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّلَنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم]، ولم يقل: فإنك عزيز حكيم، لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء، أي إن تغفر له وترحمه، بأن توفقه للرجوع من الشرك إلى التوحيد، ومن المعصية إلى الطاعة كما في الحديث: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

وفي هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعاني قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه، واقترن به، من فعله وأمره، والله الموفق للصواب^(١).

(١) انظر: التفسير القيم (ص: ٣٩ - ٤٠).

«ارتباط الخلق بأسماء الله عز وجل : «الله، الرب، الرحمن»:

«فاسم «الرب» له الجمعُ الجامعُ لجميع المخلوقات، فهو ربُّ كلِّ شيء وخالقه، والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكلُّ من في السموات والأرض عبدٌ له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألَّه وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل، والرجاء والخوف، والحب والإنابة والإخبار والخشية، والتذلل والخضوع إلا له. وهاهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقاً موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم فالدين والشرع، والأمر والنهي، مظهره وقيامه: من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل: من صفة الربوبية، والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار: من صفة الملك، وهو ملك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلَّهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله، وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى.

وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سببٌ وأصلٌ بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسلاً، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دارَ ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة.

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته، فـ: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى»، مطابق لقوله: «رَبُّ الْعَالَمِينَ»، «الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ»، فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لا يخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها، فوسع كل شيء برحمته وربوبيته، مع أن في كونه ربًّا للعالمين ما يدل على علوه على خلقه، وكونه فوق كل شيء»^(١).

قوله تعالى: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾:

قرأ عاصم والكسائي بإثبات ألف مالِك، والباقون بحذفها، قال الزمخشري: ورجحت قراءة «ملك» لأنه قراءة أهل الحرمين، وهم أولى الناس بأن يقرءوا القرآن غَضًّا طرِيًّا كما أنزل، وقراؤهم الأعلون رواية وفصاحة، ولقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، فقد وصف ذاته بأنه الملك يوم القيامة، والقرآن يتعاقد بعضه ببعض، وتتناسب معانيه في المواد، وثمة مرجحات أخرى.

وقال بعضهم: إن قراءة مالِك أبلغ، لأن الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة، ولا تصرف له بشيء من شؤونهم الخاصة، وتظهر التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان، فلا ريب أن مالكة هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه.

ومن وجوه تفضيلها: إنها تزيد بحرف، ولقارئ القرآن بكل حرف عشر حسنات، كما رواه الترمذي عن ابن مسعود، بإسناد صحيح-

(١) انظر: التفسير القيم (ص: ٣٨-٣٩).

وكلاهما صحيح متواتر في السبع^(١).

«إنه اليوم الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم، فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات، وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه، والحجة إنما قامت برسله وكتبه.

وبهم استُحقَّ الثواب والعقاب، وبهم قام سوق يوم الدين، وسيق الأبرار إلى النعيم، والفجار إلى الجحيم»^(٢).

«ثم يعطي قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ عبوديتها، ويتأمل تضمنها لإثبات المعاد، وتفرد الرب فيه بالحكم بين خلقه، وأنه يوم يدين فيه العباد بأعمالهم في الخير والشر، وذلك من تفاصيل حمده وموجبه.

ولما كان قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) إخباراً عن حمده تعالى، قال الله: حمدي عبدي، ولما كان قوله: ﴿الزَّمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٤) إعادةً وتكريراً لأوصاف كماله، قال: أثنى عليّ عبدي، فإن الثناء إنما يكون بتكرار المحامد وتعداد أوصاف المحمود، ولما وصفه سبحانه بتفرد به بملك يوم الدين، وهو الملك الحق المتضمن لظهور عدله وكبريائه وعظمته ووحدانيته وصدق رسله، سمى هذا الثناء مجداً، فقال: مجّدي عبدي، فإن التمجيد هو الثناء بصفات العظمة والجلال»^(٥).

فائدة في اختصاص الملك بيوم الدين:

(١) انظر: محاسن التأويل (١/ ٢٢٧-٢٢٨).

(٢) ما بين القوسين من التفسير القيم (ص: ١٢).

(٣) انظر: الكلام على مسألة السماع لابن القيم (١/ ١٢٦-١٢٧).

وصفات العدل، والقبض والبسط، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، والإعزاز والإذلال، والقهر والحكم، ونحوها: أخص باسم «الملك» وخصه بيوم الدين، وهو الجزاء بالعدل، لتفرد به بالحكم فيه وحده، ولأنه اليوم الحق، وما قبله كساعة. ولأنه الغاية، وأيام الدنيا مراحل إليه^(١).

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

والآية تشتمل على أمور:

- ١- قَدَّم المفعول: «إِيَّاكَ» على الفعل: «نَعْبُدُ» للتعظيم والاهتمام.
- ٢- العبادة أقصى غاية التذلل والخضوع، ومنه طريق مُعَبَّدٌ أي مُذَلَّلٌ، ومن المعلوم أن الاستعانة تكون قبل العبادة، فالعبد يطلب العون من ربه على فعل ما يحبُّ ويرضى قبل أن يعبد، وههنا قَدَّم ما يستحق التأخير، أي «نَعْبُدُ»، لبيان الحصر وإثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فالإنسان ما خلق إلا للعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات]، وهذا من باب تقديم الغاية على الوسيلة، فكأنه يقول نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

- ٣- قَدَّم العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص بالسبب الذي ذكرناه، لأن العبادة تشتمل على الاستعانة، فالعبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

- ٤- تكرير الضمير المنصوب الكاف في كلمة «إِيَّاكَ»، للتنصيص على تخصيصه سبحانه وتعالى بكل واحدة من العبادة والاستعانة، ولإبراز

(١) انظر: التفسير القيم (ص: ٣٧).

الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب^(١).

«والعبد كلما كان أذَلَّ لله وأعظمَ افتقارًا إليه وخضوعًا له: كان أقربَ إليه، وأعزَّ له، وأعظمَ لقدره، فأسعدُ الخلق: أعظمهم عبوديةً لله، وأما المخلوق فكلما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيرَه، واستغن عن من شئت تكن نظيرَه، وأحسن إلى من شئت تكن أميرَه»^(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: وتقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل، إذ العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، ولأن «إياك نعبد» متعلق بألوهيته، واسمه «الله» و«إياك نستعين» متعلق بربوبيته واسمه الرب، فقدّم «إياك نعبد» على «إياك نستعين» كما تقدم اسم الله على الرب في أول السورة، ولأن «إياك نعبد» قسم الرب، فكان من الشطر الأول الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به، و «إياك نستعين» قسم العبد، فكان مع الشطر الذي له، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة.

ولأن العبادة المطلقة: تتضمن الاستعانة، من غير عكس، فكل عابد لله عبوديةً تامةً: مستعينٌ به، ولا ينعكس، لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم، ولهذا كانت قسم الرب، ولأن الاستعانة جزء من العبادة، من غير عكس، ولأن

(١) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠ / ١٤٩)، وتفسير السعدي (ص: ٣٩)،

وإرشاد العقل السليم لأبي السعود (١ / ١٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية (١ / ٣٩).

الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له، ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص ومن غير مخلص، ولأن العبادة حقه الذي أوجبه عليك، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صدقته التي تصدق بها عليك، وأداء حقه: أهم من التعرض لصدقته، ولأن العبادة شكر نعمته عليك، والله يجب أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإذا التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم.

والعبودية محفوفة بإعانتين: إعانة قبلها على التزامها والقيام بها، وإعانة بعدها على عبودية أخرى، وهكذا أبداً، حتى يقضي العبد نحبه، ولأن «إياك نعبد» له، و«إياك نستعين» به، وما له مقدم على ما به، لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه، وما به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تتعلق بمشيئته، فإن الكون كله متعلق بمشيئته، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار، والطاعات والمعاصي، والمتعلق بمحبته: طاعاتهم وإيمانهم، والكفار أهل مشيئة، والمؤمنون أهل محبته، ولهذا لا يستقر في النار شيء لله أبداً، وكل ما فيها فإنه به تعالى وبمشيئته.

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم «إياك نعبد» على «إياك نستعين». وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ففيه: أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصص، فهو في قوة: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك، والحاكم

في ذلك ذوق العربية والفقه فيها، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدماً، وسيبويه نص على الاهتمام، ولم ينف غيره، ولأنه يقبَح من القائل: أن يعتق عشرة أعبد مثلاً، ثم يقول لأحدهم: إياك أعتقت، ومن سمعه أنكر ذلك عليه، وقال: وغيره أيضاً أعتقت، ولولا فهم الاختصاص لما قبَح هذا الكلام، ولا حسن إنكاره.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة]، ﴿وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ﴾ [البقرة]، كيف تجده في قوة: لا ترهبوا غيري، ولا تتقوا سواي؟ وكذلك «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» هو في قوة: لا نعبد غيرك ولا نستعين بسواك، وكل ذي ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من هذا السياق، ولا عبرة بجدل من قلّ فهمه، وفتح عليه باب الشك والتشكيك، فهو لاء هم آفة العلوم، وبلية الأذهان والفهوم، مع أن في ضمير «إياك» من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس في الضمير المتصل، ففي «إياك قصدت، وأحببت» من الدلالة على معنى حقيقتك وذاتك قصدي ما ليس في قولك: قصدتك وأحببتك. وإياك أعني: فيه معنى نفسك وذاتك وحقيقتك أعني. ومن هاهنا قال من قال من النحاة: إن «إيّا» اسم ظاهر، مضاف إلى الضمير المتصل، ولم يردّ بردّ شاف.

ولولا أنّا في شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام في هذه المسألة، وذكرنا مذاهب النحاة فيها، ونصرنا الراجح، ولعل أن نعطف على ذلك بعون الله. وفي إعادة «إياك» مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين، ففي إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ما ليس في حذفه،

فإذا قلت لملك مثلاً: إياك أحبُّ، وإياك أخافُ، كان فيه من اختصاص الحبِّ والخوف بذاته، والاهتمام بذكره ما ليس في قولك: إياك أحبُّ وأخافُ^(١).

أقسام الناس في العبادة والاستعانة:

إذا عرف هذا: فالناس في هذين الأصلين؛ وهما العبادة والاستعانة أربعة أقسام.

أجلها وأفضلها: أهل العبادة والاستعانة بالله عليها، فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ويوفقهم للقيام بها، ولهذا كان من أفضل ما يسأل الربّ تبارك وتعالى الإعانة على مرضاته، وهو الذي علمه النبي ﷺ لحبه معاذ بن جبل.

فقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

فأنفع الدعاء طلب العون على مرضاته، وأفضل المواهب: إسعافه بهذا المطلوب وجميع الأدعية الماثورة مدارها على هذا، وعلى دفع ما يضاده، وعلى تكميله وتيسير أسبابه. فتأملها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: تأملت أنفع الدعاء: فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيت في الفاتحة في «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

ومقابل هؤلاء: القسم الثاني: وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة

(١) انظر: التفسير القيم (ص: ٧٠-٧٢).

به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأله أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهواته، لا على مرضاة ربه وحقوقه، فإنه سبحانه يسأله من في السموات والأرض: يسأله أولياؤه وأعداؤه ويمدّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغض خلقه: عدوه إبليس ومع هذا فسأله حاجة فأعطاه إياها، ومتعه بها، ولكن لما لم تكن عوناً له على مرضاته: كانت زيادة له في شقوته، وبعده عن الله وطرده عنه، وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه، ولم يكن عوناً على طاعته، كان مبعداً له عن مرضاته، قاطعاً له عنه ولا بد.

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضاؤها له من هوانه عليه وسقوطه من عينه، ويكون منعه منها لكرامته عليه ومحبه له، فيمنعه حماية وصيانة وحفظاً لا بخلاً، وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبه، ويعامله بلطفه: فيظن بجهله أن الله لا يحبه ولا يكرمه، ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء ظنه بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها، كما قيل:

وعاجز الرأي مضياح لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدر
فو الله لو كشف عن حاصله وسره، لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه، وأنه قد كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، ولكن ما حيلتي؟ والأمر ليس إليّ، والعاقل خصم نفسه والجاهل خصم أقدار ربه، فاحذر كل الحذر أن تسأله

شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مغيبة عنك، وإذا لم تجد من سؤاله بدا، فعلقه على شرط علمه تعالى فيه الخيرة، وقدم بين يدي سؤالك الاستخارة، ولا تكن استخارة باللسان بلا معرفة بل استخارة من لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها، ولا اهتداء له إلى تفاصيلها، ولا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بل إن وكل إلى نفسه هلك كل الهلاك، وانفرط عليه أمره، وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال: تسأله أن يجعله عوناً على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعاً لك عنه، ولا مبعداً عن مرضاته، ولا تظن أن عطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاءه ومنعه ابتلاءً وامتحاناً، يمتحن بهما عباده، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَإِمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر]، أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته عليّ ولكنه ابتلاء مني وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه، وأخول فيه غيره؟

وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه، وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه عليّ، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظه السخط.

فردّ الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام، وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتله بالفقر لهوانه عليّ.

فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتّر على المؤمن لا لإهنته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته. فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد.

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ».

القسم الثالث: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهؤلاء نوعان.

أحدها: القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألفاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل، فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل، وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها، بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة: فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء، ولكن أوليائه اختاروا لنفوسهم الإيمان، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء لا بتوفيق زائد، أوجب لهم الإيمان، وخذل هؤلاء بأمر آخر، أوجب لهم الكفر، فعباد هؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة، لا استعانة معه: فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد. قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيداً.

النوع الثاني: من لهم عبادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر، وتلاشيها في ضمنه، وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا

وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها، والمعول على المحرك الأول. فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل. فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم، فقل نصيبهم من «إياك نستعين» ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف فهو لاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم. ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورا بإزالته، لأزاله.

فإن قلت: فما معنى التوكل والاستعانة؟

قلت: هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، وتفرده بالخلق والتدبير والضر والنفع، والعطاء والمنع، وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن، وإن شاءه الناس، فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به و يقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه، وأنه ملي به، ولا يكون إلا بمشيئته، شاءه الناس أم أبوه، فتشبه حاله حالة الطفل مع أبويه فيما ينوبه من رغبة ورهبة هما مليان بهما، فانظر في تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه، وحبس همّه على إنزال ما ينوبه بهما، فهذه حال المتوكل، ومن كان هكذا مع الله، فالله كافيه ولا بد، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أي كافيه، والحسب: الكافي، فإن كان مع هذا من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو:

القسم الرابع: وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضرر، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولم يدر مع ما يحبه ويرضاه، فتوكل عليه، واستعان به

على حظوظه وشهواته وأغراضه، وطلبها منه، وأنزلها به ففضيت له، وأسعف بها، ولكن لا عاقبة له، سواء كانت أموالاً أو رئاسةً أو جاهاً عند الخلق أو أحوالاً، من كشف وتأثير وقوة وتمكين، فإنها من جنس الملك الظاهر، والأموال لا تستلزم الإسلام، فضلاً عن الولاية والقرب من الله.

فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فمن استدل بشيء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه، وأنه من أوليائه المقربين، فهو من أجهل الجاهلين، وأبعدهم معرفة بالله ودينه، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويسخطه، فالحال من الدنيا، فهو كالمملك والمال، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته، وتنفيذ أوامره، ألحقه بالملوك العادلين البررة، وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله، وملحق له بالملوك الظلمة، والأغنياء الفجرة.

إذا عرف هذا: فلا يكون العبد متحققاً بإيائك نعبد إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول ﷺ، والثاني: الإخلاص للمعبود^(١).

قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ»: رجع من الغيبة إلى الخطاب على التلوين، وهذا فن بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب في افتنان الكلام ومسلك البراعة حسبما يقتضي المقام، فمن أول السورة إلى هاهنا خبراً عن الله تعالى وثناءً عليه، ثم رجع إلى الخطاب بطلب العبد العون والتأييد والتوفيق^(٢).

فالانتقال من أسلوب إلى أسلوب أدعى إلى استجلاب النفوس،

(١) انظر: التفسير القيم (ص: ٧٣-٧٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ١٤٥)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (١/ ١٨٦).

واستمالة القلوب.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ انتظر جواب ربه له: هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سأل^(١)، وتأمل عبودية هاتين الكلمتين وحقوقهما، وميز الكلمة التي لله والكلمة التي للعبد، وفقه سر كون أحدهما لله والأخرى للعبد، وميز بين التوحيد الذي تقتضيه كلمة "إياك نعبد" والتوحيد الذي تقتضيه كلمة "إياك نستعين"، وفقه سر كون هاتين الكلمتين في وسط السورة بين نوعي الثناء قبلهما والدعاء بعدهما، وفقه تقديم "إياك نعبد" على "إياك نستعين"، وتقديم المعمول على الفعل مع الإتيان به مؤخرًا أوجز وأخصر، وسر إعادة الضمير مرة بعد مرة، وعلم ما تدفع كل واحدة من الكلمتين من الآفة المنافية للعبودية، وكيف تدخله الكلمتان في صريح العبودية، وعلم كيف يدور القرآن من أوله إلى آخره على هاتين الكلمتين، بل كيف يدور عليهما الخلق والأمر والثواب والعقاب والدنيا والآخرة، وكيف تضمنتا لأجل الغايات وأكمل الوسائل، وكيف جيء بهما بضمير الخطاب والحضور دون ضمير الغائب.

(١) تقدم حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سمع رسول الله ﷺ قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمْدِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنْتَنِي عَلَى عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجْدِي عَبْدِي - وَقَالَ مَرَّةً فَوْضَ إِلَيَّ عَبْدِي - فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، أخرجه مسلم (٣٩٥).

وهذا موضع يستدعي كتابًا كبيرًا، ولولا الخروج عما نحن بصدده لأوضحناه وبسطنا القول فيه^(١).

قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾:

دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك. قال بعض العلماء: فجعل الله جل وعز عظم الدعاء وجملته موضوعا في هذه السورة، نصفها فيه مجمع الثناء، ونصفها فيه مجمع الحاجات، وجعل هذا الدعاء الذي في هذه السورة أفضل من الذي يدعو به [الداعي] لأن هذا الكلام قد تكلم به رب العالمين^(٢).

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه. وكذلك ذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطية الخَطَفِي:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا عَوَجَّ الْمَوَارِدُ مُسْتَقِيمٌ
يريد على طريق الحق. ومنه قول الهذلي أبي ذؤيب:
صَبَحْنَا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرَكْنَاهَا أَدَقَّ مِنْ الصِّرَاطِ
ومنه قول الراجز:

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الصِّرَاطِ الْقَاصِدِ

(١) انظر: الكلام على مسألة السماع (١/ ١٢٧ - ١٢٨).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٤٧).

والشواهد على ذلك أكثر من أن تُحصى^(١).

تأمل ضرورته وفاقته إلى قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿٦﴾ الذي مضمونه معرفة الحق وقصده وإرادته والعمل به والثبات عليه والدعوة إليه والصبر على أذى المدعو، فباستكمال هذه المراتب الخمس تستكمل الهداية، وما نقص منها نقص من هدايته ولما كان العبد مفتقرًا إلى هذه الهداية في ظاهره وباطنه في جميع ما يأتيه ويذره:

من أمورٍ قد فعلها على غير الهداية علمًا وعملاً وإرادةً، فهو محتاج إلى التوبة منها، وتوبته منها هي الهداية.

وأمر قد هُدي إلى أصلها دون تفصيلها، فهو محتاج إلى هداية تفاصيلها.

وأمر قد هُدي إليها من وجه دون وجه، فهو محتاج إلى تمام الهداية فيها، ليتِمَّ له الهداية ويُزاد هدى إلى هداه.

وأمر يحتاج فيها إلى أن يحصل له من الهداية في مستقبلها مثل ما حصل له في ماضيها.

وأمر يعتقد فيها بخلاف ما هي عليه، فهو محتاج إلى هداية تنسخ من قلبه ذلك الاعتقاد، وتُثبت فيه ضده.

وأمر من الهداية هو قادر عليها، ولكن لم يخلق له إرادة فعلها، فهو محتاج في تمام الهداية إلى خلق إرادة يفعلها بها.

وأمر منها هو غير قادر على فعلها مع كونه مريدًا، فهو محتاج في

(١) انظر: جامع البيان (١/ ١٧٠ - ١٧١).

هدايته إلى إقداره عليها.

وأمر منها هو غير قادر عليها ولا يريد لها فهو محتاج إلى خلق القدرة والإرادة له لتتم له الهداية وأمر هو قائم بها على وجه الهداية اعتقاداً وإرادة وعملاً، فهو محتاج إلى الثبات عليها واستدامتها.

= كانت حاجته إلى سؤال الهداية أعظم الحاجات، وفاقته إليها أشد الفاقات، فرض عليه الرب الرحيم هذا السؤال كل يوم وليلة في أفضل أحواله وهي الصلوات الخمس مراتٍ متعددة، لشدة ضرورته وفاقته إلى هذا المطلوب^(١).

وقيل الهداية: هي العلم بالحق مع قصده وإيثاره على غيره، فالمهتدي هو العالم بالحق المريد له، وهي أعظم نعمة لله على العبد، ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس؛ فإنَّ العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضي الله في كل حركة ظاهرة وباطنة، فإذا عرفها فهو محتاج إلى من يُلهمه قصد الحق فيجعل إرادته في قلبه، ثم إلى من يُقدره على فعله.

ومعلوم أنَّ ما يجهله العبد أضعافُ أضعاف ما يعلمه، وأنَّ كلَّ ما يعلمه أنه حقٌّ لا تطاوعه نفسه على إرادته، ولو أراد له عجز عن كثيرٍ منه؛ فهو مضطَّرُّ كلِّ وقتٍ إلى هداية تتعلَّق بالماضي وبالحال وبالمستقبل.

أما الماضي، فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه، وهل وقع على السَّداد فيشكر الله عليه ويستديمه، أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه

(١) انظر: الكلام على مسألة السماع (١/ ١٢٨ - ١٣٠).

ويستغفره، ويعزم على أن لا يعود؟

وأما الهداية في الحال، فهي مطلوبة منه؛ فإنه ابنُ وقته، فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال، هل هو صواب أم خطأ؟
وأما المستقبل، فحاجته فيه إلى الهداية أظهر؛ ليكون سيره على الطريق.

وإذا كان هذا شأن الهداية عَلِمَ أَنَّ العبد أشد شيء اضطراباً إليها، وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد، وهو أَنَا إذا كنّا مهتدين فأَيُّ حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا؟! وهل هذا إلا تحصيل الحاصل؟! = أفسد سؤال وأبعده عن الصواب، وهو دليل على أَنَّ صاحبه لم يحصل معنى الهداية، ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها؛ فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى: ثَبَّتْنَا عَلَى الهداية وأدِمَّهَا لَنَا.

ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية، وحاجة العبد إليها، عَلِمَ أَنَّ الذي لم يحصل له منها أضعافُ ما حصل له، وأنه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة، لا سيما والله تعالى خالقُ أفعال القلوب والجوارح، فهو كل وقت محتاج إلى أن يخلق الله له هداية خاصة، ثم إن لم تُصَرَف عنه الموانع والصوارف التي تمنع مُوجِب الهداية وتَصْرِفُهَا لم ينتفع بالهداية، ولم يتم مقصودُها له؛ فَإِنَّ الحكم لا يكفي فيه وجود مقتضيه، بل لا بد مع ذلك من عدم مانعه ومُنَافِيهِ.

ومعلومٌ أَنَّ وساوس العبد وخواطره وشهوات الغي في قلبه كل منها مانعٌ من وصول أثر الهداية إليه، فإن لم يصرفها الله عنه لم يهتد هدى تاماً؛

فحاجته إلى هداية الله له مقرونة بأنفاسه، وهي أعظم حاجة للعبد»^(١).

واعلم أن الهداية نوعان:

١ - هداية التوفيق: وهي بيد الله وحده، ليست لملك مقرب ولا نبي مرسل، وهي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فالهداية في الآية بمعنى التوفيق للعمل، ولزوم الطريق المستقيم باتباع الكتاب والسنة بفهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان، وهذه هداية خاصة يتفضل الله بها على العبد الذي أقبل على ربه بحب وصدق ويقين، ورهبة من عذابه ورغبة في ثوابه، فيوفقه للعمل والعمل، ويجعل الإيمان في قلبه ويحببه إليه، ويكره إليه الفسوق والعصيان. وهو سبحانه العليم الحكيم، يعلم من يستحق الهداية، ومن يستحق الغواية، وكل أفعاله صادرة عن علم وحكمة وعدل.

٢ - هداية الإرشاد والبيان لمصالح العبد: هي بيان الحق والإرشاد إلى طريق الهدى، وهي التي قال الله تعالى فيها لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى]، هذه الهداية التي تقوم بها الحجة على العباد، ومن منعه الله هداية التوفيق للعمل فهذا بمقتضى حكمته وعدله، يعلم أنه لا يستحق الهداية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال].

وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه،

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم لابن القيم (١/ ٢٣٠ - ٢٣٢).

الذي لا يزكو لديه ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا^(١)، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت].

فقد جعل الله تعالى للعبد مشيئة وإرادة واختياراً، قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير]، وهذه المشيئة محاطة بمشيئة الرب، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير].

فانتبه، واحذر فكر الجبرية^(٢)، فالله الرحمن الرحيم الحكيم الذي لا يجبر أحداً على معصية ثم يعاقبه، فهذا ينافي العدل والحكمة والرحمة، والله تعالى متصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، منزّه عن كل عيب ونقص، سبحانه وتعالى وعز وجل.

إنما يضل من استحبّ الضلال بعدما جاءه الهدى، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَلَةٌ لِّضَلِّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهداهم هداية الإرشاد والبيان، ومنعهم هداية التوفيق لعلمه أنهم ليسوا أهلاً لها، فقد جاءهم الهدى فأعرضوا وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة.

فليُنظر العبد إلى نفسه وما بها من شهواتٍ وشبهاتٍ تحول بينه وبين

(١) انظر: تفسير السعدي (ص: ٣١٨).

(٢) الجبرية: فرقة من الفرق الضالة، من عقائدهم الفاسدة: أن الإنسان مجبورٌ على أفعاله مطلقاً، ونفي الاستطاعة عن العباد، فهم جهمية قدرية جبرية. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٠٠)، ومجموع الفتاوى لابن تيمية (٨/ ٢٢٧-٢٣٨)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز (ص: ٤٣٢).

رضا الرب، والوصول إلى الصراط المستقيم.

قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا

الضَّالِّينَ ۝٧﴾:

لم يبين الله تعالى هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم، وبين ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قُلْ لَّيْكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩].

«وفي هذه الآية رد على القدرية والمعتزلة والإمامية، لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه، طاعة كانت أو معصية، لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه، وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية إذ سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم، فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربهم لما سألوه الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة، وكذلك تضرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة]، فكما سألوه أن يهديهم سألوه ألا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨]»^(٢).

انقسام الخلق بالنسبة للهداية إلى ثلاثة أقسام:

(١) انظر: أضواء البيان للشنقيطي (٨ / ١)، وتفسير أبي السعود (١ / ١٨)، وتفسير ابن كثير (١ / ١٤٠).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١ / ١٤٩).

طائفةٌ منعمٌ عليهم، وطائفةٌ مغضوبٌ عليهم، وطائفةٌ ضالةٌ.
فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى الأقسام الثلاثة.
لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق، أو جاهلاً به. والعالم بالحق إما أن يكون
عاملاً بموجبه أو مخالفاً له.

فهذه أقسام المكلفين. لا يخرجون عنها البتة، فالعالم بالحق العامل به:
هو المنعم عليه. وهو الذي زكَّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وهو
المفلح ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس]، والعالم به المتبع هواه هو
المغضوب عليه، والجاهل بالحق: هو الضال.

والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل، والضال مغضوب عليه
لضلاله عن العلم الموجب للعمل، فكل منهما ضال مغضوب عليه، ولكن
تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به.

ومن هاهنا كان اليهود أحقَّ به، وهو متغلظ في حقهم، كقوله تعالى في
حقهم ﴿بِسْمَا أَشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ
يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى
غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠]، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكْ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ
مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرُّ
مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة].

والجاهل بالحق: أحق باسم الضلال، ومن هنا وصفت النصارى به
في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا
أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة].

فالأولى: في سياق الخطاب مع اليهود.

والثانية: في سياقه مع النصارى.

وفي الترمذي وصحيح ابن حبان: من حديث عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: «الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ».

ففي ذكر المنعم عليهم - وهم من عرف الحق واتبعه - والمغضوب عليهم - وهم من عرفه واتبع هواه - والضالين - وهم من جهله -: ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة، لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة، وأضاف النعمة إليه، وحذف فاعل الغضب لوجوه منها: أن النعمة هي الخير والفصل، والغضب من باب الانتقام والعدل، والرحمة تغلب الغضب، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين، وأسبقهما وأقواهما، وهذه طريقة القرآن في إسناد الخيرات والنعمة إليه.

وحذف الفاعل في مقابلتها، كقول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ مِنَّا فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن]، ومنه قوله الخضر في شأن الجدار واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]، وتأمل قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] - ثم قال - ﴿وَأُحِلَّ

لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ ﴿[النساء: ٢٤].

وفي تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دلّ على أن النعمة المطلقة هي الموجبة للفلاح الدائم، وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمه، وهذا فصل النزاع في مسألة: هل لله على الكافر من نعمة أم لا؟.

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿[إبراهيم: ٣٤].

والنعمة من جنس الإحسان، بل هي الإحسان، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر، والمؤمن والكافر. وأما الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعمة: ﴿وَمَا يَكْمُرُ مِنْ نِعْمَةٍ فَمَنْ اللَّهُ﴾ [النحل: ٥٣]، فأضيف إليه ما هو منفرد به، وإن أضيف إلى غيره فلكونه طريقاً ومجرى للنعمة، وأما الغضب على أعدائه فلا يختص به تعالى، بل ملائكته وأنبيأؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه، فكان في طلبه المغضوب عليهم» بموافقة أوليائه له: من الدلالة على تفرد بالإنعام، وأن النعمة المطلقة منه وحده، هو المنفرد بها - ما ليس في لفظه «المنعم عليهم».

الوجه الثالث: أن في حذف فاعل الغضب من الإشعار بإهانة المغضوب عليه وتحقيره، وتصغير شأنه، ما ليس في ذكر فاعل النعمة، من إكرام المنعم عليه والإشادة بذكره، ورفع قدره: ما ليس في حذفه، فإذا

رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه، ورفع قدره، فقلت: هذا الذي أكرمه السلطان، وخلع عليه وأعطاه ما تمناه، كان أبلغ في الشاء والتعظيم من قولك: هذا الذي أكرم وخلع عليه وشرف وأعطي.

وتأمل سرّاً بديعاً في ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره، فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية التي هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي الهدى ودين الحق، ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء، فهذا تمام النعمة، ولفظ «أنعمت عليهم» يتضمن الأمرين، وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضاً أمرين: الجزاء بالغضب الذي موجه غاية العذاب والهوان، والسبب الذي استحقوا به غضبه سبحانه. فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال، فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم، وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم، فإن من ضلّ استحق العقوبة التي هي موجب ضلالة وغضب الله عليه.

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أين استلزام، واقتضاه أكمل اقتضاء، في غاية الإيجاز والبيان والفصاحة، مع ذكر الفاعل في أهل السعادة، وحذفه في أهل الغضب، وإسناد الفعل إلى السبب في أهل الضلال.

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة، والغضب والضلال، فذكر المغضوب عليهم والضالين في مقابلة المهتدين المنعم عليهم، وهذا كثير في القرآن: يقرن بين الضلال والشقاء، وبين الهدى والفلاح، فالثاني كقوله:

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، والأول كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]، وقوله: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فهذا الهدى والسعادة، ثم قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [١٢٤]، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، فذكر الضلال والشقاء، فالهدى والسعادة متلازمان، والضلال والشقاء متلازمان^(١).

جاء الصراط المستقيم مفرداً معرّفًا تعريفيين؛ تعريفاً باللام، وتعريفاً

بالإضافة:

وذلك يفيد تعيّن واختصاصه، وأنه صراط واحد. وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها ويفردها، كقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فوحّد لفظ الصراط وسبيله. وجمع السبل المخالفة له.

وقال ابن مسعود: «خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، وَقَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: " هَذِهِ سُبُلٌ وَعَلَىٰ كُلِّ

(١) انظر: التفسير القيم (١/ ١٤ - ١٨).

سَبِيلِ شَيْطَانٍ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة، إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، مُوصِّلٌ إلى الله^(١).



تم بحمد الله ومنه وفضله تدبر وتفسير سورة الفاتحة

(١) انظر: التفسير القيم (١/ ١٨ - ١٩).

الفهرس

٧	مصنفات المؤلفه
٩	المقدمة
١٢	تمهيد
٢٤	جمل من فضائل القرآن
٣٢	جمل من آداب حامل القرآن
٤٠	أسباب اختلاف المفسرين
٤٦	معنى نزول القرآن على سبعة أحرف
٥٦	مسائل في الاستعاذه
٦٤	السورة والآية والبسملة
٦٩	فضائل سورة الفاتحة
٧٧	تفسير سورة الفاتحة
١٢٤	الفهرس

